تصور

وطنيون واوطان

320.158 : N26wA

نصور، اديب.

وطنيون واوطان.

320.158
N26wA

JAN 8 '58

MAY 28 '56

JUN 30 '63

11 NOV 68

320.158
N26wA
c.1

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
مقدم الى مكتبة الجامعة الاميركية
في بيروت - تقديرا للمؤسسة العظمى
واعترافا بالفضل
بيروت ١٩٥٢

أديب نصّور
دكتور في السياسة من جامعة اكسفورد

وَطنيّون وأوطان

الوطنية كما فهمها أنبل رجال الفكر والعمل في التاريخ

دار العلم للملايين
بيروت
١٩٥٢

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
LIBRARY

الطبعة الاولى

بيروت ، آذار ١٩٥٢

لا درسَ احق بالعناية ولا عادةَ اجدر بالاكتساب من ملكة الحكم الصحيح على الاشياء ووضع لذتنا في الاخلاق العظيمة والاعمال النبيلة .

(ارسطو ، كتاب السياسة)

•

الوطنية شعور ينمو في النفس ، ويزداد لهبه في القلوب ، كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه .

(مصطفى كامل)

•

Something is rotten in the state of Denmark .

(Hamlet)

(شكسبير)

مقدمة في التربية الوطنية

فعلم ما استطعت لعل جيلا
سيأتي يحدث العجب العجابا
شوقي

•

في الألف السنة الماضية لم يكن لنا وطن حر ودولة مستقلة وسلطان. ولم نحيَ حياة المواطنين الاحرار المتمتعين بالحقوق، الناهضين بالواجبات . ولم يتح لنا ان نحكم انفسنا بانفسنا او ان نختار اولي الامر منا ونطيعهم بعد ذلك ما اطاعوا القانون ، وانما حكمنا غرباء عنا وساسنا بالرغبة والرهبة اقوام مختلفون .

نحن امة عريقة لها دين واخلاق ومجد وآداب ، لكن العهد قد بعد بيننا وبين ارستوقراطية قريش وخلافة الراشدين وملك بني امية وحضارة بني العباس، فلا نجد وراءنا تقليداً متصلاً في اصول الحكم وسياسة الملك وآداب السلطان ، ولانحن نمشي على اضواء تاريخنا المجيد البعيد .

وخسرنا في هذه الألف السنة اخلاقنا الاولى التي بها فتحنا الفتوح وبنينا الدول ونلنا الرئاسة بين الامم وشدنا الحضارات .

وفي اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن تطلعت نفوس كبيرة منا ، هي نتاج الطبيعة اكثر منها نتاج التقليد ، الى جمال الحرية وشرف الاستقلال واستطاعت ان تمس القلوب بلهبها القدسي فكانت الدعوات الادبية ، اول الامر ، الى الحرية والمجد العربي ، واعقبها تأليف الجمعيات السرية ثم العمل الصريح فالثورة المعلنة لتحرير البلاد وانشاء دولة العرب .

ومرونا بين الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية بمراحل كفاح كان

يلين حيناً ويشتد حيناً آخر ، ويظهر هنا ويختفي ليعود الى الظهور هناك ، الا انه لم يكن كافياً ليطهرنا تطهيراً وليكون في نار الحرمان ولهب الايمان وطنية خالصة وخلقاً قومياً عظيما .

وساعدت السوريين المتوثبين ظروف دولية ملائمة استغلها ساسة سوريا احسن استغلال فوجدنا انفسنا مستقلين استقلالاً تاماً في ربيع ١٩٤٦ . ثم لم تلبث ان عاجلتنا الاحداث الضخمة وامتحنت الشخصية العربية امتحاناً قاسياً فلم ترجح لها كفة في الميزان وبدا لأعين المواطنين والغرباء ضعف الخلق القومي ومحنة الوطنية في بلاد العرب .

لقد اتيحت لسوريا بعد الجلاء فرصة نادرة لم تتح لبلد عربي آخر غير لبنان . وقد كان بامكان الدولة السورية بعد الجلاء ان تبتدىء الحياة السورية ابتداء فتوجه همها الاول الى امر التربية الوطنية وتضع صورة السوري الجديد الذي تريد ان تعده للدولة الحديثة وللواجبات العربية المقبلة ، وتخرج عمالا ممتازين لها ومواطنين صالحين ترسخ قواعد الجمهورية على فضائلهم المدنية وولائهم الاكيد ، لكن شيئا من هذا لم يحدث . وكل ما حدث هو ان تضاعفت المدارس وكثر عدد المعلمين وتخرج كل سنة الوف من حملة الشهادات ، من ذكور واناث ، وافتخرت وزارة المعارف بازدياد الارقام المتصاعدة وباندحار الامية امام جيشها اللجب من مدرسين ومديرين ومفتشين وآذنين . ورُفعت في ذلك التقارير واذيعت النشرات . وتنافس النواب في وضع المخصصات لافتتاح المدارس في مناطقهم الانتخابية وفي اضافة الصفوف الثانوية الى المدارس الابتدائية . وجرت آلة المعارف وما تزال تجري وتدفع الى المجتمع كل عام الوف المتعلمين وانصاف المتعلمين والاشباه . لكن احداً من الناس لم يعالج الى الآن مشكلة التربية الاساسية التي اشار اليها ارسطو في قوله : « نرى من البيّن ان القانون يجب ان ينظم التربية وان التربية يجب ان تكون عامة . ولكن الشيء الاساسي ان يعرف بالضبط ماذا يجب ان تكون هذه التربية والنمط الذي ينبغي اتباعه » * .

* الفقرة الثالثة من الكتاب الخامس في « السياسة » لارسطوطاليس .

آلة المعارف شيء والتربية الوطنية شيء آخر .

ماذا نعلّم الناشئين ؟

ما الغاية التي يجري اليها نظام التعليم في سوريا ؟

اي نماذج انسانية ينتج هذا النظام ؟

واي مواطن هذا الذي تدفعه آلة المعارف الى الحياة ؟

ليست انكر ان بعض الخير قد تحقق وان سوريين كثيرين قد تعلموا القراءة والكتابة وشيئا من حساب و كيمياء ، وان عدداً غير قليل منهم قد تعودوا أن يفكروا شيئا ما وان يستعملوا عقولهم الى حد ما . لكن الشيء الاهم من بعض المعلومات ومن القدرة العقلية على استعمال تلك المعلومات هو شخصية الناشيء – فِكَرُهُ الاساسية ، القيم التي يؤمن بها ، الغاية التي يعيش من اجلها ، وعادات التفكير والشعور والعمل التي اكتسبها ... هنا قصرت آلة المعارف وما تزال مقصرة الى الآن .

لقد فشلت الجمهورية السورية في تربية ابنائها، وقصّر رجال المعارف حين قصروا همهم على تيسير العلم لاكبر عدد ممكن من الناس دون النظر الى موضوع العلم وغرض التربية . ويؤسفني ان الاحظ ان محاولة الاستاذ الكبير ساطع الحصري ، على جلالها ، استهدفت إعداد البرامج وتنظيم التفتيش واختصار الادارة – اي انها تناولت آلة المعارف « وتكنيك » التربية ولم تتناول بصورة مباشرة فعالة روح الناشيء وشخصية المواطن .

وفشل كذلك المعلمون السوريون فلم يستطيعوا ان يوجهوا الطلاب ، بالمثل العالي ونمط الحياة المدرسية، الى اكتساب الفضائل المدنية. ولم يستطيعوا ان يوحوا اليهم الفكر الصحيحة والصور القوية الاخاذة عن الفضيلة والوطنية والبطولة وسائر الاخلاق التي بدونها لا تنشأ امة ولا تتكون شخصية قومية فذة .

إني لا أنسى يوماً من ايام ١٩٤٨ كنت احاضر فيه عن نظم الحكم وطبقات الحكام ، في الجامعة السورية . وقد توقفت قليلاً عند نظام الحكم في انكلترا وذكرت كيف تساهم الجامعات القديمة في إعداد طبقة حاكمة مختارة. وبعد المحاضرة

جاءني طالب حقوق في السنة الثانية ورماني بهذا السؤال : «استاذ، الا يضرب طلاب اكسفورد وكمبردج ، الا يتظاهرون ؟» فقلت « لا ». قال الفتى بدهشة واستعلاء : « عجيب ، أليس عندهم شعور وطني !»

ولأول مرة بدا لي ان وطنية اكثر الناشئين السوريين تتصل بالحنجرة واللسان اكثر مما تتصل بالعقل والقلب والضمير . هي اظهـــار عاطفة عابرة وابداء حماسة طارئة بطريقة لا تكلف صاحبها كبير عناء وانما قد تنقذه من سماع محاضرة مملة يلقيها استاذ قديم . هي اضراب عن الدروس وتظاهر في الشوارع واصدار بيانات واسقاط حكومات وتحدي العالم بالهتافات والاناشيد . ان وطنية كهذه لا يصح ان يعتمد عليها الوطن في الملمات وما ينبغي لنا ان نطمئن الى وضع مقدرات البلاد بين يديها في مستقبل الايام .

والفرق بعيد بين عقلية الطالب السوري وفهمه للوطنية وبين عقلية الطالب الانكليزي وفهمه للوطنية . وقد يساعدنا على تدارك النقص في نظام التربية عندنا ان نقارن بين ما ينشأ عليه طالب الجامعة السورية وطالب اكسفورد او كمبردج .

لنقرر اولاً ان الناشيء الانكليزي ينشأ في جو عقلي روحي يمكن ان يوصف بانه جوّ الوطنية اليونانية والبطولة الرومانية . فاثينا واليونان وروما العظيمة والرومان تُبعث في المدرسة العامة (Public School) وفي الجامعة القديمة ، وتتحرك في خيال الصبي وتتحدّث اليه كل يوم اعجبَ الحديث واروعه . وهـذا الصبي قرأ في التاسعة سِير « بلوتارك » ورافق عظماء اليونان والرومان وأُعجب بولائهم للدولة وحبهم للعظمة واكبر بذلهم غاية الجهد في اكتساب المجد الخالد القائم على تأدية خدمة حقيقية للوطن . وتعلّم من ذلك كله ، واستقر في اعماق نفسه ان اعظم الشرف هو في تكريس الحياة للدولة وفي تقديم الحياة فداء لها عند الاقتضاء .

يقول المفكر الاميركي هوايتهد (Whitehead) ؛ : « ان التربية هي في اعتياد النظر الى العظمة » ؛ ولا شك ان الأدب الكلاسيكي الكبير بما فيـــه من حكمة وتاريخ وآداب يحدث ألفة بين العظمة الحقيقية وبين الناشئين ويغريهم اغراء شديداً بالاقتداء . انه مدرسة في كبر النفس .

وطلابنا ماذا يقرأون؟ وفي اي جو عقلي يكوّنون اراءهم عن الوطنية والوطن؟ ان اليوم الذي تدخل فيه اليونانية واللاتينية الى الجامعة السورية وتُنقل امهات الكتب الكلاسيكية الى العربية ويتناول طلابنا تاريخ ثوسيديدس، ومحاورات افلاطون، وخطب ديموستين ، وآثار شيشرون بمثل السهولة التي يتخاطفون بها « المصور » و « اخبار اليوم » ، ان ذلك اليوم سيكون مباركاً في تاريخ التربية الوطنية في هذه البلاد .

ونحن في هذا التقدير للأدب الكلاسيكي لا نحاول ان نقلل من قيمة الادب العربي ، ففي الادب العربي النخوة والكرم والنجدة والاباء وحب الاستشهاد والتفاخر بالموت في سبيل أنبل الغايات . لكن هذا الادب الرفيع لا يعطي الناشيء فكرة عن « الوطن » ولا يقدم له صوراً رائعة عن الوطنية . فالولاء عند العرب كان يتصل بجماعة او بشخص . ولاء العربي في الجاهلية كان للقبيلة ، وولاؤه بعد الاسلام كان منصرفاً الى جماعة المسلمين او الى خليفة المسلمين . ولم ينصرف هذا الولاء قط لدولة او وطن كبير . وكيف ننتظر من العربي في صدر الاسلام وبعد صدر الاسلام ان يمتد ولاؤه مع امتداد الفتح ويحتضن وطناً مترامي الاطراف لا يستطيع ان يستحضره في خيال ، وطناً يمتد من مشرق الشمس في الهند الى مغرب الشمس في الاندلس . واذ كان لا يعيش انسان بدون « وطنية محلية » من نوع ما فقد تعصب اهل الشام للشام وتعصب اهل العراق للعراق وتعصب اهل مصر لمصر ولم يعرف العرب في ذلك الزمان عصبية عربية جامعة للوطن العربي الكبير او للدولة التي انتظمت ذلك الوطن .

نعود الى المقارنة فنقول ان الناشيء الانكليزي بالاضافة الى ما يطالع من صور الوطنية عند اليونان والرومان يجد في حياة قومه السياسية نماذج عالية من الوطنية والاخلاق فيحتذيها . اما اذا ظهر فينا رجل عظيم او وطني كبير فانا نبادر الى تهديمه فنسخر منه اول الامر ونقلل من شأنه ونتهمه بالرشوة ونثير حوله الشكوك وقد نلصق به الخيانة آخر الامر . وكثيراً ما نسارع الى الرجل المأمول فنحاول اقصاءه عن الميدان ونفرض عليه العزلة والخمول .

ولنسجل في المقام الثالث ان نظام التربية في المدارس العامة الانكليزية وفي الجامعات القديمة يستهدف إعداد الحكام الممتازين للدولة وتربية المواطنين، فهل يمكن القول إن مدارس التجهيز ومعاهد الجامعة السورية تعنى بتربية المواطنين وتثقيف الحكام ؟

لعلي لا اعدو الحقيقة حين ازعم انّ انهيار الجمهورية السورية مرده في الدرجة الاولى الى فشل الدولة السورية في تربية ابنائها وعجز المربين .

فهل اعتبرنا بما حدث وهل تنبهنا الى تقصير خطير في حق انفسنا وحق الدولة علينا وحق الاجيال البريئة القادمة ؟

منذ بضعة شهور التقيت بعالم من علماء التربية في هذه البلاد وطرحت عليه هذا السؤال : « من هو السوري الذي تعمل المعارف السورية على اخراجه ؟ بماذا يؤمن ؟ وما هي افكاره الاساسية ونظراته الى القومية والانسانية والله ؟ » فتعجب الرجل وصارحني بانه لم يكن ينتظر ان يثير هذا الموضوع احد في سوريا. واحسب ان هذا الامر الخطير لا بد ان يكون قد خطر لبعض المشتغلين بالتربية لكنه لم يطرح رسميا على بساط البحث حتى الآن ولم يعالج على المستوى الوزاري ولم تجد المعارف له جوابا ولا تصوّر احد هذا الانسان السوري العربي المنشود، ولا حاولت آلة المعارف ان تسوّي سوريين وسوريات على تلك الصورة .

وعندما اهملت الجمهورية السورية تربية ابنائها وقصّرت المعارف في واجبها الاولي وتخلى المعلم السوري عن رسالته تقدّم ليملأ الفراغ بعض المشتغلين بالسياسة فألفوا احزابا قوامها الطلاب والشباب وقالوا لهم ان كل ما اصابنا من شرور وما حل بنا من كوارث ناشيء عن تعسف « فئة حاكمة » و « خيانة » بعض الرجال ، فاذا تخلصنا من تلك « الفئة الطاغية » ومن اولئك « الخونة » استقام امرنا وبنينا دولة ورفعنا امة الى السماء .

وعلّموا الشباب ان الحرية « تفتّح » مواهب و « انطلاق » عبقريات ولم يعلموهم ان الحرية ضبط نفس قبل كل شيء وجهاد داخلي وعسر عسير ورعاية لحريات الآخرين واحترام متبادل بين المواطنين الاحرار .

وقال هؤلاء السياسيون للشباب : انتم المنقذون وانتم وحدكم المخلصون . ان الاجيال المتقدمة فاسدة او عاجزة وانتم دعامة الحاضر وامل المستقبل . واذا لم تضربوا وتتظاهروا وتحتجوا على هذا الامر او ذاك وتفرضوا ارادة الشارع العليا ، على الحكومة والمجلس والبلاد فان الدولة تنهار ويضيع الاستقلال ويسوء المصير .

وهكذا هدم رجال الغوغاء السلطات الادبية والرسمية القائمة في البلاد فلم يعد لدى الجيل الصاعد احترام لأب او معلم او رجل دولة ، وخيّل لابن العشرين انه يجب ان يشرف اشرافا عاليا على سياسة البلاد ويصحح اخطاء الرجعيين من آباء وامهات ومعلمين ورجال دولة .

وواضح ان اكثر المشتغلين بالسياسة الذين جمعوا الشباب وألفوا الاحزاب لم تكن غايتهم تكوين الشخصيات الفاضلة وتهذيب النفوس وتزيينها بالخصال والآداب ولم تستهدف جهودهم خلق جيل جديد يصلح للحياة الحرة الكريمة ويخلص الولاء للدولة ويتفانى في خدمتها ، وانما كان غرضهم الاول والأهم ان يكسبوا الاصوات ويحشدوا الانصار ويعتزوا بالعدد الكثير .

ولم يحدث في تاريخ أمة صغيرة كأمتنا ان نشأ بين ظهرانيها ، في مثل هذا الزمن القصير ، مثل هذا المحصول الكبير من اصحاب الدعوات ومدعي الرسالات من معلمين صغار ومتطفلين على مراكز القيادة والتوجيه . والمتأمل في هذه الدعوات قلما يجد نفحة من نفحات النخوة القومية او نسمة من نسمات الاريحية الانسانية ، لكنه واجد على كل حال نزوات الاحزاب واهواء النفوس وغرائز الدهماء .

وبعد فهل من مصلح حقيقي ، كسقراط ، يقول للناس ما يجب ان يعلموا لا ما يريدون ان يسمعوا ، ويوجه شباب البلاد الى الحق والخير والكمال ، ويقبل حكم الموت الجائر حرصاً على كيان الدولة وحرمة قوانينها ؟

هل من معلم كبير يفهم ساسة الناس ان الدساتير والقوانين والاحكام ما هي إلا ادوات يحركها الخلق القومي ، وان الاصلاح العميق والتقدم الأكيد يجب ان يتناول هذا الخلق قبل كل شيء ، وان العمل الاساسي يبدأ دائماً في عقل الفرد وقلب الفرد بعيداً عن الصخب والثورة والفتن ، وان المصلحين الكبار كانوا دائماً

معلمين لشعوبهم ؟

هل من زعامة نقية تقية ملهمة ، كزعامة غاندي ، تطهّر النفوس وتخلص الأمة من آثامها وتربط الوطنية والعمل العام بمخافة الله ؟ .

وهل من رسالة وطنية خيّرة ، كرسالة مازيني ، تعلّم الطبقات والعصبيات والاحزاب ان الوطنية حب قبل كل شيء : حب الارض وحب التراث وحب المواطنين جميعاً إذ لولا المواطنون لما كان للارض الخالية قيمة ولا كان للتراث اليتيم اي معنى .

وهل من اشتراكية كريمة سمحاء ، كاشتراكية جوريس ، لا تنسى حقوق الوطن ووحدة ابنائه ولا تتخلى عن الاخلاق والآداب والفضائل ولا تتنكر للطريقة الحسنى حين تلتمس الغذاء والكساء والدواء لجميع المواطنين ؟

في انتظار اولئك الذين تنعم بهم السماء على الامم نضع بين يدي الناشيء السوري امثلة عالية للوطنية في التاريخ ونقدّم اليه طائفة من المصلحين الكبار والمواطنين الاخيار وندعوه الى العيش ، ولو لحظات ، في جوهم الرفيع راجين ان نكون قد قمنا بخدمة يسيرة للجيل الصاعد . عسى ان تبارك السماء هذا الجيل المأمول فيغدو ابناؤه مواطنين صالحين ويخرج من صفوفهم الطامحة ساسة وقادة ومصلحون لسوريا والعرب .

حماه ، صيف ١٩٥١

أديب نصور

حضارة آثينا

« هـذا الخطاب القاه بركليس (Pericles) ، اعظم الساسة الآثينيين ، سنة ٤٣١ قبل الميلاد ، عند الاحتفـال بدفن القتلى الذين سقطوا في بدء الحرب المستعرة بين آثينا من جهة وبين سبارطة وحلفائها من جهة ثانية . وهو يصور عظمة آثينـا ووطنية ابنائها ويبرر حضارتها امـام التاريخ والناس . والخطاب مأخوذ من تاريخ ثوسيديدس . »

•

ان اكثر الذين تقدموني في الكلام امتدحوا الشارع الذي اضاف هذه الخطبة الى تقاليدنا في المآتم . فقد بدا لهم انه تقليد فاضل ان يمنح مثل هذا الشرف عنـد الدفن للذين سقطوا في ميادين القتال . لكني كنت افضل ان يكرّم اولئـك الشهداء الذين كانت اعمالهم رائعة بالاعمال فحسب وبمثل هذا المأتم العـام الذي تشهدون الآن ، اذن لما تعرّض للخطر صيت الاكثرين بسبب بلاغـة او عيّ فرد من الناس ، ولما توقف الايمان بفضائلهم على فن الخطيب . لانه من الصعب ان يتجنب المرء معاً التقصير في القول والاسراف فيه . وحتى الاعتدال معرّض لان يكون بعيداً عن الانصاف . فمن كان صديقاً للشهداء عالماً بالوقائع مـال الى الظن بان كلمات الخطيب تقصر عن معرفته وعن هواه ؛ ومن كان اقل معرفة بهم فقـد يشعر بالحسد ويتهم الخطيب بالمغالاة ان هو سمع شيئاً يتجاوز عزمه واقتـداره . فالناس يتقبلون الثناء على الآخرين ما دام السامع منهم يعتقد بانه يستطيع ان يأتي بمثل الفعال المثنى عليها ، ولكن عندما يرتفع الخطيب فوق مستواه يستيقظ الحسد في صدره ويبدأ بالشك والارتياب .

ولكن بما ان اسلافنا قد استحسنوا هذا التقليد واتبعوه فيجب عليّ ان اتبعه. وسأبذل جهدي محاولاً إرضاء رغبات السامعين .

سأتحدث اولا عن اسلافنا ، لانه من الحق ومن اللائق ان نشيد بذكرهم ونحن نندب الشهداء . لقد استوطنوا هذه الارض منذ الازل وحافظوا عليهـــا ببأسهم فانتقلت سليمةً من جيل الى جيل وتلقيناها منهم دولة حرة . واذا كان الاسلاف الاولون اهلا للثناء فآباؤنا احق واولى لانهم اضافوا الى تراثهم تراثاً وخلّفـــوا للأبناء ، بعد الكفاح الطويل ، هذه الامبراطورية العظمى . ونحن المجتمعين اليوم ههنا ، واكثرنا ما زال في فجر الحياة ، قـد مضينا في مضمار الرقي ومنحنا مدينتنا كل شيء حتى اصبحت تكفي ذاتها في السلم والحرب جميعاً .

لن احدثكم عن مآثرنا الحربية التي غنمنا بها ممتلكاتنا المختلفة . ولن احدثكم عن نخوتنا ونخوة آبائنا التي صدت هجمات الاغريق والبرابرة ، فالقصة طويلة وانتم بها عالمون . لكن قبل ان ارثي الشهـــداء أود ان ابيّن باي المباديء ارتقينا الى السلطان ، وبايّ المؤسسات ، وباية طريقة في الحياة اصبحت امبراطوريتنا عظيمة فاني ارى ان هذه الافكار مناسبة للمقام وان هذا الحفـــل الكبير من المواطنين والغرباء سيجد الفائدة في الاصغاء .

إن شكل حكومتنا لا يدخل في منافسة مع مؤسسات الآخرين . نحن لا نقلد جيراننا وانما نحن لهم مثال . إنا ندعى بحق ديموقراطية لان الحكم للكثرة لا للقلة ، والقانون يضمن العدل المتساوي للجميع في القضايا الخاصة ؛ إلا انا لا نضيع حـق التفوق والفضل . فاذا نبغ مواطن من المواطنين فانا نقدمه للخدمة العامة لا امتيازاً له ، وانما تقديراً للنبوغ .

وليس الفقر حائلاً دون الخدمة العامة ؛ وللمرء ان يفيد بـــلاده مهما كان خمول شأنـــه .

حياتنا العامة ليست مقصورة على احد . وفي معاملاتنا الخاصة لا نسيء الظن ، ولا نغضب على جارنا ان هو فعل ما يشاء ، ولا نعبس او نتولى عمن لا يعجبنا منظره. وبينما نجدنا متسامحين في الحياة الخاصة فان روح الوقار والاجلال تتخلـــل

اعمالنا العـــامة .

يمنعنا عن الاذى احترامنـا للسلطات والقوانين . ونحن نراعي بصورة خاصة الشرائع المقررة لحماية المظلومين وتلك القوانين غـير المكتوبة التي تجلب على من ينتهك حرمتها استنكارَ الرأي العام .

حاولنا اولاً ان نكون احراراً والتمسنا السعادة في المقام الثاني ، فعندنا ألعاب منظمة واعياد وقرابين. وبيوتنا جميلة وانيقة. والبهجةُ التي يثيرها مرأى الجمال كل يوم تُبعد عنا الكآبة، وعظمة مدينتنا تجلب لنا ثمرات الارض جميعا فنتمتع بخيرات بلدنا وسائر البلاد .

وتدريبنا العسكري يمتاز من وجوه شتى على تدريب اعدائنا . مدينتنا مفتوحة للعـالم وإنا لا نُبعد اجنبياً ولا نمنعه من رؤية او معرفة اي شيء قد يفيد العدو اذا فشا سرّه . انا لا نعتمد على التضليل والخداع وانما على قلوبنا وسواعدنا.

وفي شئون التربية ، بينما يخضع اعداؤنا ، منذ الصبا الاول ، لتدريبات شاقـة يكتسبون بها الشجاعة نعيش نحن في يسر ولكننا لا نقل عنهم استعداداً لمجابهة الاخطار. واليكم البرهان - ان اهل اسبارطة لا يأتون الى « أتيكا » وحدهم وانما يجـرّون معهم جميع حلفائهم . اما نحن فنذهب وحيدين الى بلد العدو ، ورغم ان اعداءنا يدافعون عن بيوتهم ونحن نحارب في ديار غريبـــة فاننا لا نجد صعوبة في التغلب عليهم . واعداؤنا لم يشعروا حتى الآن بوطأة قوتنا الموحدة ، لان الاهتمام بالاسطول يوزع جهودنا ، وفي البر نضطرّ ان نرسل مواطنينا الى كل مكان. اما هم فاذا التقوا بقسم من جيشنا وهزموه فانهم يفاخرون كأنهم دحرونا جميعاً ، واذا غُلبوا على أمرهم ادعوا أن قوتنا بأجمعها دُفعت الى الميدان .

واذا نحن آثرنا ان نلقى الخطر بقلب مطمئن وبدون تدريب شاق ، وبشجاعة اكتُسبت بالعادة ولم تُفرض بقانون ، السنا الرابحين ؟ انا لا نتوقع الألم ، اما اذا جاءت الساعة فنستطيع ان نستبسل مثل اولئك الذين لا يسمحون لانفسهم بالراحة. وهكذا تكون مدينتنا رائعة في السلم والحرب جميعا .

إنا نحب الجمال بدون غلوّ ونهذب العقل محافظين على رجولتنا .

الثروة نصرفها في وجوهها ولا نجمع المال للتفاخر والمباهاة .

والاعتراف بالفقر ليس عاراً عندنا . اما العار ففي التقاعس عن العمل الذي يجنب الفقر .

والمواطن الاثيني لا يهمل الدولة ليهتم بشئونه الخاصة. وحتى اولئك المشتغلون بالتجارة والاعمال يتابعون قضايا السياسة . ونحن وحدنا بين الامم لا ننظر الى الرجل الذي لا يهتم بالشئون العامة على انه مسالم وغير مضر ؛ وانما نعتبره عديم النفع لاخير فيه . واذا كان المبدعون في السياسة قليلين فانا جميعا نحسن الحكم على السياسات. وليس النقاش في نظرنا معرقلا للعمل ، وانما العائق الكبير هو فقدان تلك المعرفة التي تُنال بالنقاش المهيء للعمل . ولنا قدرة على التفكير قبل العمل وعلى التنفيذ ايضاً ، بينما يُقدم غيرنا عن جهل ويحجم بعدَ النظر . ألا ان اجرا النفوس تلك التي تدرك آلام الحياة ومسراتها ثم لا تطير شعاعا من الموت .

ونختلف ايضا عن غيرنا في عمل الخير. فانا نكسب الاصدقاء باسداء الجميل اليهم لا بتقبّل الاحسان منهم . لان الذي يولي الجميلَ هو الصديق الافضل ؛ اما الذي يتقبّل الاحسان فيحفظ في صدره ذكرى التزام . والآخذ باردُ الشعور لانه يعلم حين يجازي احسان المعطي انه لا يظفر بعرفان الجميل وانما يفي ديناً قديماً .

انا نحسن الى جيراننا دون أن نحسب للمصلحة حسابا، وانما نفعل ذلك بثقة وحرية وبروح جريئة صريحة سمحة . وبكلمة واحدة اقول ان آثينا مدرسة اليونان وان الفرد الآثيني بشخصه يتحلى بالقدرة على تكييف نفسه ويتنقل بين اشكال العمل المختلفة بكياسة وظرف عجيب. وليس هذا كلاما فارغا وانما هو الحقيقة والواقع. ويؤيد زعمي المركز الممتاز الذي ارتفعت اليه الدولة بتلك الصفات .

وفي ساعات المحنة تبدو آثينا وحدها بين الدول اعظم من شهرتها. ولا يسخط عدو يهاجم آثينا ان نزلت به الكوارث على يديها ، كما لا يشتكي العبد مدّعيا ان سادته لا يصلحون له .

وليس تعوزنا الشواهد . فلسلطاننا صروح جبارة تجعلنا اعجوبة هذا العصر والاعصر القادمة . ولسنا بحاجة الى مدائح هومر او اي مغنٍّ آخر يعجب شعره

حين يقال ولا تحتمل وقائعه ضوء النهار . واضطررنا كل ارض وكل بحر ان يشق طريقا لبأسنا ، ونصبنا في كل مكان تذكاراً خالداً لصداقتنا او عداوتنا .

هذه هي المدينة التي من اجلها قاتل هؤلاء بنبل وسقطوا في القتال . انهم لم يحتملوا ان تؤخذ الدولة منهم. وكل واحد منا يجب ان يستمر مجاهداً في سبيلها .

تحدثت طويلاً عن عظمة آثينا لاني اريد ان أبين لكم انا نناضل في سبيل امر اجل من امر قوم حرموا امتيازاتنا، ولأقيم لكم البرهان على عظمة الرجال الذين استحقوا هذا الرثاء .

ولقد اثنيت عليهم فيما تقدم لاني حين عظمت الدولة عظمتهم ايضاً وعظمت رجالاً امثالهم رفعوا شأن الدولة بفضائلهم. وما اقل الاغريق الذين يمكن ان يقال عنهم ان اعمالهم حين توضع في الميزان تعادل شهرتهم او تزيد . يخيل الي ان موتا كموتهم يعطي القياس الحقيقي لفضل الرجال .

قد يكون هذا الموت الاعلان الاول عن فضائلهم، لكنه الطابع الاخير لحياتهم على كل حال. وحتى الذين قصروا في ميادين اخرى يحق لهم ان يسجلوا البأس الذي قاتلوا به في سبيل بلادهم . انهم محوا الاساءة بالاحسان ونفعوا الدولة بخدماتهم العامة اكثر مما ضروها باعمالهم الخاصة . ان احداً من هؤلاء الرجال لم يثبط همته الغنى ولا تردد في هجر ملذات الحياة، ولم يؤجل الفقير منهم لحظة السوء على امل ان يغنى في يوم من الأيام . وانما وجدوا كيد الاعداء اطيب الطيبات وتحققوا انهم لا يستطيعون ان يموتوا في قضية انبل من هذه فقرروا ، وهم يجازفون بحياتهم ، ان يثأروا للشرف وينسوا كل شيء بعد ذلك . وتخلوا عن الامل في حظهم المجهول من السعادة. وأخذوا على أنفسهم عهداً ان يلقوا الموت معتمدين على انفسهم فحسب . وحين اقتربت الساعة عزموا على ان يثبتوا ويضحوا لا ان يطيروا خوفاً وينقذوا النفس؛ لقد هربوا من كلمة العار، اما في مستنقع الموت فقد ثبتت اقدامهم، وفي اروع لحظة من لحظات القدر قتلوا وغادروا ميدان مجدهم لا مشهد الذعر والجبن .

هكذا كانت نهاية هؤلاء الابطال ، لقد كانوا جديرين باثينا ، فلا يطمعن الاحياء في بطولة اعظم من بطولتهم ، على ان لهم ان يأملوا في نهاية اقل شؤماً . ان قيمة

مثل هذه الروح لا يُعبر عنها بالكلام . إذ يستطيع اي كان ان يحاضر الى الابد عن حسنات الدفاع الباسل وانتم لا تجهلونها . ولكن اولى لكم من الاستماع اليه ان تتأملوا يوماً بعد يوم عظمة اثينا حتى تمتلىء بمحبتها قلوبكم . وحين تؤخذون برؤية مجدها تذكروا ان هذه الامبراطورية بناها رجال عرفوا واجبهم وكانت لهم الجرأة الكافية للقيام بالواجب . رجال كانوا يخافون العار في ساحة القتال ، ورجال إذا فشلوا في مهمة لم يخسروا فضائلهم وانما يبذلون نفوسهم كأنفس قرابين نقدّم لبلادهم في عيدها .

والتضحية التي قاموا بها جماعات قد كوفئوا عليها فرادى ، لان كل واحد منهم قد اكتسب حمداً لا يبلى واقام لنفسه انبل ضريح — اني لا اتكلم عن ضريح تلقى فيه الرمم البالية وانما اتحدث عن ضريح يخلد فيه مجدهم ويذاع ذكرهم دائماً وفي كل مناسبة بالقول والفعل . ان الارض باجمعها ضريح لافذاذ الرجال وذكرهم لا يحيا بالاعمدة والنقوش في بلادهم ولكن في البلاد الاجنبية ايضاً يقوم نصب تذكاري غير منظور نُقش على صدور الرجال لا في الحجر .

اتخذوهم قدوةً لكم ومثالاً ، ولا تدققوا في حسبان مخاطر الحرب لان السعادة بالحرية ، والحرية بالشجاعة .

إن البائس الذي لا امل له في تحسين حاله لأضعف عذراً في المجازفة بحياته من منعَم إن بقي حياً فهو عرضة لتغير الاحوال وتقلب الزمان . ان الفتى ليجد الجبن والكارثة معاً اكثر مرارة من موت يأتيه على حين غرة وملء إهابه الشجاعة والامل الغزير .

لذلك كله لا أرثي لحال اهل الشهداء الواقفين ههنا وانما ألتمس لهم جميل العزاء .

تعلمون ان حياتكم تمر بصروف الدهر وانه يُعدّ سعيداً من ربح اعظم الشرف بموت مجيد كموتهم او حزن حميد كحزنهم ومن اقترنت نهاية حياته بنهاية سعادته . اني لأعلم حق العلم انه من الصعوبة بمكان أن أُشعركم بهذا ، بينما يذكركم حظ الآخرين بالفرح الذي ملأ فيما مضى قلوبكم ، والأسى الذي يعتري المرء حين يفقد بركات كانت في وقت ما جزءاً من حياته ثم أُخذت منه .

ان بعضكم ما يزال في سنّ يأملون معها ان يُنجبوا اولاداً آخرين ، وعليهم ان يصبروا الصبرَ الجميل لان ما سيولد لهم سينسيهم ما خسروا من البنين . والدولة تربح مرتين . فانها لا تُترك قفراء موحشة، وستكون اعزّ نفراً وامنع جانباً . وهل يستوي رأي مواطن ذي بنين ورأي آخر لا ولد له فيجازف بحياته في الخطر العام ؟

واقول لمن اجتاز منكم عنفوان الشباب : اغتبطوا لانكم كنتم سعداء في القسم الاكبر من ايامكم ، واذكروا ان حياة حزنكم لن تطول ، وتعزّوا بمجد مضى . لان حب المجد دائم الشباب وليس الغنى كما يزعم البعض ، وانما المجد هو الذي يشرح صدور الرجال في آخر العمر .

ويا ابناء الشهداء واخوانهم ستجدون الكفاح عسيراً للاقتداء بهم ؛ لان الناس جميعاً يذكرون حسنات الاموات . ومهما كانت فضائلكم سامية فلن يظنّ بكم مداناتهم فضلاً عن التساوي بهم . للاحياء منافسوهم والمستخفون بهم ولكن حين يمضي المرء من الطريق يكسب الشرف الخالص والنية الحسنة . واذا كان لي ان اخاطب الارامل منكم عن فضائل النساء فلأُلخّص القول في تنبيه قصير : شرف كبير للمرأة ان لا تُظهر ضعفاً غير ضعفها الطبيعي والا يجري ذكرها بين الرجال بخير او شر .

ها أنا ذا قد اديت واجب الكلام المفروض ، إطاعة للشريعة . اما التكريم الفعلي فقد تم جزء منه، ودُفن الشهداء بمراسم الشرف، ولم يبق سوى ان تتعهد الدولة اطفالهم حتى يبلغوا سن الرشد . وهذا هو الاجر الكبير الذي تتوج به اثينا ، كما لو كان إكليل زهر ، الاحياءَ من ابنائها والاموات بعد جهاد كجهادهم . فحيثما يعظم جزاء الفضيلة تجد انبل المواطنين يتطوعون لخدمة الدولة .

وبعد فاذا فرغتم من النواح وندبَ كل واحد منكم موتاه فانصرفوا بسلام .

جنود سبارطة

« كان قدماء اليونان يتمتعون بميزتين لم يعرفها جيرانهم ولا من عاصرهم من الامم : الحرية ، وذلك الاحترام للقانون الذي بدونه تضمحلّ الحريات . واشتهرت سبارطة (Sparta) على الخصوص بنظام مدني وعسكري رائع جعلها مضرب الامثال على الدهر . وفيما يلي بعض ما كتب عن سبارطة المؤرخ هيرودوتس (Herodotus) في الفصل السابع من تاريخه المعروف . »

•

قبل الزحف الاخير على بلاد اليونان استعرض ملك الفرس كي خسرو (Xerxes) جنوده ثم سأل احد المنفيين من اهل سبارطة اسمه ديماراتوس (Demaratus) عما اذا كان اليونانيون سيستأنفون المقاومة امام هذا الجيش العظيم الزاحف ، فأجاب ديماراتوس :

« الفقر ، ايها الملك ، كان وما يزال امراً طبيعياً في اليونان ، اما الفضيلة فهي اكتساب . انها ابنة الحكمة والقانون الصارم . وبفضيلتها تحمي اليونان نفسها من الفقر والاستبداد . وهذا ينطبق على جميع اليونانيين ، لكني سأكتفي الآن بالكلام عن اهل سبارطة . ان هؤلاء لن يقبلوا شروطك التي تجعل اليونانيين عبيدا ، وسينازلونك في الميدان ولو أيدك سائر اليونان . فلا تسأل عن عددهم وما يملكون من الجنود للقيام بهذا العمل . سيقاتلونك سواء اكانوا يملكون الف مقاتل او اكثر او اقل . »

فضحك كي خسرو وقال : « كيف يستطيع الف من الرجال او عشرة آلاف

او حتى خمسون الفاً ، جميعهم احرار متساوون وغير خاضعين لحاكم واحد ، ان يقاوموا جيشي العظيم ؟ وهب انهم كانوا خمسة آلاف فسنبقى بالنسبة اليهم الفاً لواحد . ان جنوداً كجنودي تحت إمرة حاكم فرد يخشون قائدهم ويستبسلون في القتال رغم انفهم ؛ وتحت السياط يهاجمون عدواً اكثر منهم عدداً ؛ اما اذا تُركوا احراراً فلن يصنعوا شيئاً من هذا القبيل . انك تهذي ولا تعلم ما تقول . »

وبعد ابداء ملاحظات في حدود الادب اجاب ديماراتوس ان الملك على خطأ . « ليس افضل من جنود سبارطة حين يقاتلون فرادى ، اما اذا قاتلوا جماعات فليس لهم مثيل على الاطلاق ؛ لانهم احرار ولكن ليسوا مطلقي الحرية . القانون هو السيد الآمر عليهم ، وانهم ليهابون القانون اكثر مما يهابك الفرس ، ويطيعون اوامره ، واوامرُه لا تتغير ابداً: وهي ألا يولوا الادبار مهما كان عدد الاعداء وان يبقوا في صفوفهم حتى ينتصروا او يموتوا . »

وبرهنت معركة ثرموبيلي (Thermopylae) ان هذه ليست مجرد كلمات . ومكان المعركة ممرٌ ضيق كان مفتاح اليونان الوسطى ، وكان البحر على يسار الفرس وعلى يمينهم تلال ترتفع ثلاثة آلاف قدم ، وبين البحر والجبل قطعة ضيقة من الارض يمتد عليها الطريق . وسُدّ ذلك الممر بحائط يحميه ستة آلاف يوناني . اما في المرحلة الاخيرة من القتال فلم يشترك في الدفاع عن ذلك الممر غير ثلاثمائة من جنود سبارطة وسبعمائة من اهل ثسبس (Thespies). وكان هناك طريق اخرى صعبة المسالك عبر الجبال يمكن ان يطوّق منها جناح اليونانيين . وكان يحرس تلك الطريق الف من اهل فوسيد (Phocide) .

ولما وجد كي خسرو ان الممر محصن ارسل عيناً من عيونه ليستطلع احوال المدافعين ويعرف عددهم ومقدار استعدادهم لانه كان قد جاءه ان عدداً من اليونانيين احتشدوا في ذلك المكان وبينهم بعض جنود من سبارطة على رأسهم ليونيداس (Leonidas) . وذهب الرجل فوجد الجنود معسكرين امام الحاجز ، بعضهم يقومون بتمرينات عسكرية وآخرون يزينون رؤوسهم . فعجب الرجل لامرهم واحصى عددهم ورجع دون ان يعترضه

احد او يلقي اليه بالا . ثم أنهى الى كي خسرو خبر ما رأى .

أما الملك فلم يدرك حقيقة الموقف مما سمع ، والواقع ان جنود سبارطة كانوا يهيئون انفسهم ليبذلوا اقصى الجهد فيبلغوا غايتهم او يموتوا . وبدا له ان تصرفهم سخيف فارسل في طلب ديماراتوس واطلعه على التقرير ، قال ديماراتوس :

« ايها الملك قبل ان تبدأ الحملة حدثتك عن هؤلاء الرجال فاستهزأت بي رغم اني انبأتك بما سيحدث ، فأصغِ اليّ مرة اخرى . لقد جاء هؤلاء الرجال ليعترضوا طريقنا بالقوة وانهم يُعدّون انفسهم لذلك ، إذ ان من عادتهم حين يُقدمون على الموت ان يزينوا رؤوسهم . واعلم ايضاً انك إذا تغلبت على هؤلاء وعلى مواطنيهم في سبارطة فلن تقف في وجهك أمة اخرى على الارض . انك الآن امام افضل مملكة ومدينة في اليونان وامامك اشجع ابنائها . »

فلم يصدّق كي خسرو ما سمع وتساءل مرة اخرى كيف يتسنى لقبضة من الرجال ان تقاتل جنده العظيم ، وانتظر اربعة ايام ظناً منه ان العدو سيتراجع . وجاء اليوم الخامس واليونانيون صامدون ، فغضب الملك وارسل اليهم الميديين والساسانيين وامرهم ان يأخذوا اليونانيين اسرى ويحضروهم اليه . فقام الميديون بهجوم تكبدوا فيه خسائر فادحة وانجدهم آخرون لكنهم لم يستطيعوا التغلب على اليونانيين بالرغم من هجومهم العنيف . واتضح لجميع الناظرين وللملك ايضاً انه ان كان يملك رجالاً عديدين فالرجولة في جيشه قليلة .

وبعد ان عجز الميديون انسحبوا وحلت محلهم فرقة من الفرس كان الملك يسميهم « الخالدون » . وانتظر كي خسرو ان ينجح هؤلاء بدون صعوبة ، وابتدأ هؤلاء بالهجوم فلم يكونوا اكثر توفيقاً من الميديين . كانت رماحهم اقصر من رماح اليونانيين ولم تكن امامهم فسحة ليستفيدوا من عددهم الكثير . ولم تستطع جهودهم ان تظفر بشبر من الممر ، فانسحب اخيراً الخالدون . وروي ان كي خسرو وثب ثلاث مرات من على عرشه اثناء الغارات الاخيرة ، خوفاً على جنوده .

وفي اليوم التالي استأنف الفرس القتال فلم يكن حظهم خيراً من حظهم أمس فانسحبوا . وبينما كان كي خسرو في حيرة شديدة من امره جاءه مخبر

وعرض ان يدله ،مقابل جائزة مالية، على طريق عبر الجبال مؤدية الى « ثرموبيلي » فيقع اليونانيون في الشراك . فقبل كي‌خسرو العرض وارسل فرقة من جنوده اول المساء فواصلوا السير طوال الليل وعند الفجر شارفوا ذروة الجبل حيث كان يرابط الف من جنود « فوسيد » . وخشي القائد الفارسي ان يكون هؤلاء من اهل سبارطة وتردد اول الامر ، فلما علم انهم من « فوسيد » هيأ جنده للقتال . اما اليونانيون فقد التجأوا الى التلال وتهيأوا للموت . لكن الفرس لم يأبهوا لهم وانحدروا بسرعة من اعلى الجبل .

وعلم اليونانيون المرابطون في « ثرموبيلي » بزحف الفرس وحركة التطويق هذه فعقدوا مجلساً انقسمت فيه الآراء . فبعضهم رأى ان يحافظوا على خط دفاعهم ، وآخرون خالفوا هذا الراي . وانفرط بعد ذلك عقدهم فانصرف بعضهم راجعين الى بلدانهم المختلفة ، وعزم قسم على البقاء مع ليونيداس ؛ ويقال ان الامير ليونيداس هو الذي صرفهم حرصاً على حياتهم . اما هو فقد اختار البقاء لانه لا يتناسب مع شرفه وشرف جند سبارطة الذين كانوا في معيته ان يتخلوا عن مكان جاءوا ليحموه .

وأنا اميل الى هذا القول ميلاً شديداً ، واحسب ان ليونيداس حين لاحظ ان حلفاءه لا يرغبون في ركوب الخطر الى جانبه ، امرهم ان ينصرفوا كلٌ في سبيله . اما هو فقد اعتبر التراجع مشيناً ، وإذا بقي في الميدان فسيكتسب شهرة عظيمة وينقذ اسم سبارطة من العار . وكان مواطنوه قد استشاروا عند بدء القتال الكاهنَ في أمر تلك الحرب فأنبأتهم آلهة « دلفي » انه لا بد من احد امرين : إما ان تدمر سبارطة على يد الاعداء أو ان يُقتل ملك من ملوك سبارطة .

وانصرف حلفاء ليونيداس ولم يبق مع جنود سبارطة غير « الثسبيين » و « التيبيين » . اما هؤلاء فقد احتفظ بهم ليونيداس كرهائن ، وأما اولئك فقد اقاموا مع ليونيداس بناءً على رغبتهم الخاصة .

وعند شروق الشمس قام كي‌خسرو بتقديم القرابين ثم انتظر ارتفاع

الضحى وابتدأ الهجوم . امـــا اليونانيون بقيادة ليونيداس فحين تحققوا انهم ملاقو الموت تقدموا الى عرض الطريق . وقد كانوا الى ذلك الحين يقاتلون في المنعطفات الضيقة ، اما الآن فقد اخذوا يقاتلون خـارج المضيق وسقط في المعركة كثـير من الفرس . وكان وراء صفوف الفرس قواد يجلدونهم بالسياط ويدفعونهم الى الامام . ووقع كثير في البحر وهلكوا ووُطيء كثيرون بالاقدام وهم احياء ولم يلتفت اليهم احد .

واليونانيون ، وقد علموا ان الموت آتٍ مع الفرس الهابطين من التلال ، جمعوا قواتهم وقاتلوا قتالَ مغامرين بهم شيطان . وانكسرت اكثر رماحهم فاستلوا السيوف . وفي هذا المعترك سقط ليونيداس بعد ان ابلى احسن البلاء ، وسقط معه كثيرون من رجال سبارطة المعدودين . وقتل ايضاً عدد من كبراء الفرس بينهم اميران من اخوة كي خسرو الملك .

وجرى نزاع عنيف بين جنود سبارطة والفرس على جثمان ليونيداس حتى استطاع اليونانيون ببسالتهم ان يستخلصوا الجثمان وهزموا الاعـــداء اربع مرات . واستمر القتال على تلك الحال الى ان جاءت فرقة جديدة لمؤازرة الفرس ، فلما رآها اليونانيون اتخذت المعركة شكلاً آخر رجع اليونانيون الى المنعطفات الضيقة واجتازوا السدّ واتخذوا مكانهم على رابية في رأس الممرّ حيث نُصب فيما بعد تمثـال سبع من حجر تخليداً لبطولة ليونيداس . وهنا قاتلَ بالسيف من وجد سيفا ، ومن لم يجد قاتلَ باسنانه ويديه حتى توارى اليونانيون تحت سهـــام الفرس الذين احاطوا بهم من كل جانب .

ودُفن القتلى حيث سقطوا وأُقيـم على ضريحهم نصبٌ تذكاريّ يحمل هذا البيت :

يا من يمرّ بنا اذهبْ الى سبارطة وبلّغ اهلهـــا
أنا رقـــدنا ههنـــا امتثـــالاً لأوامرهـــا

مواطن الدولة المثالية

« من حديث سقراط الى غلوكون في جمهورية افلاطون »

●

سقراط : إن الرجل الحكيم يتقبلُ الشرف بسرور ويتمتع بالمجد الذي يجعله انساناً افضل ؛ لكنه يُعرِض عن مجد ، خاص او عام ، قد يعرّض حياته للفساد والاضطراب .

غلوكون : اذا كان ذلك شأنه فلن يكون رجل دولة .

سقراط : لا وربك ، بل يكون رجل دولة ، في مدينته المفضلة يكون سياسياً . اما في ارض ميلاده فقد لا يتدخل في السياسة الا اذا دعاه داع الهي .

غلوكون : فهمت ؛ انت تعني انه يكون حاكماً في المدينة التي وضعنا أسسها نحن ، والتي لا توجد الا في عالم الفكر ، لاني لا اعتقد ان لها مثالاً على وجه الارض .

سقراط : في السماء لها مثالٌ مدّخر ونموذج يراه من يبتغيه فينسج على منواله . اما هل يوجد لها مثيل على الارض ، او هل يمكن ان يوجد في الواقع يوماً من الايام فأمرٌ غير ذي بال ؛ لان الرجل الحكيم يعيش على نُظم مدينة السماء ويُعرض عن كل ما عداها .

غلوكون : ما اظنه يفعل غير ذلك .

واجب الرجل العام

«سقراط يتحدث الى كليكليس (Callicles) وهو سياسي معاصر له ، في حوار « Gorgias » .

•

سقراط : والآن يا صاحبي ، ما دمت قد بدأت تصبح سياسيا بارزا ، وما دمت تأخذ عليّ اني غير سياسي ، ليسأل احدنا الآخر بعض الاسئلة . ماذا تقول في جعل المواطنين افضل ؟ اوَ حدث ان كان رجلٌ آثما أو ظالما او احمق او سيء الأدب فغدا بتأثيرك صالحا ونبيلا ؟ اُوجد قط مثل ذاك الرجل بين المواطنين او الغرباء ، بين العبيد او الاحرار ؟ قل لي يا صاح ، اذا القى عليك شخص هـذه الاسئلة فماذا تجيب ؟ اي رجل اصلحتَ بحديثك ؟ ربما صنعت مثل هذه الاعمال في الحياة الخاصة قبل ان تتقدم الى الحياة العامة ؟ لماذا لا تجيب ؟

كليكليس : انت مشاكسٌ يا سقراط .

سقراط : كلا ؛ اني لا اسألك حبا بالمشاكسة بل لاني اريد ان أعرف على وجه التحقيق ما هو تفكيرك فيما يجب ان تكون عليه الحياة السياسية في آثينا . واذا كنت تقصد ، حين تتقدم إلى الحكم ، غاية غير اصلاح المواطنين . الم نسلمّ سابقا بان اصلاح المواطنين هو واجب الرجل العام ؟

وطنية سقراط

« في سنة ٣٩٩ قبل الميلاد حكمت آثينا على سقراط بالموت بتهمة الالحاد وافساد الشباب . وليلة تنفيذ حكم الاعدام دبر اصدقاؤه طريقة لانقـــاذه وجاءوا ليقنعوه بضرورة الهرب فأبى واقبل على الموت بكل رضا تنفيذاً للقوانين التي كان يرى وجوب احترامها ولو كانت جائرة . وبموته برهن سقراط عـلى ولائـه الرفيـع لآثينا ووضع واجب الطاعة للقانون في اعلى منزلة عُرفت من قبل او من بعد . وقـد سجل افلاطون كلام سقراط في حوار « اقريطون » Crito »

سقراط : لنفرض ان الدولة والقوانين جاءت وظهرت لي وانا احاول الهرب وسألتني : « أخبرنا يا سقراط ماذا تصنع ؟ مـاذا تبغي بمحاولتـك الهرب غير تهديمنا نحن القوانين وتهديم المدينة باسرها بقـدر ما تستطيع ؟ اتعتقد ان دولة يمكن ان تبقى اذا كانت قوانينها غير مرعية واستخفّ بها المواطنون ؟ كيف نجيب على اسئلة كهذه يا كريتو ؟ ان مجال القول واسع امام خطيب يدافع عن القانون الذي جعل احكام القضاء فوق كل اعتبار . هل اجيب : « ان الدولة اساءت اليّ ، واخطـأت الحـكم في قضيتي ؟ » او نقول ذلك ؟

أقريطون : نعم نقول ذلك بالتأكيد يا سقراط .

سقراط : ولنفرض ان القوانين اجابت : « أكذلك كان العهد بيننا ؟

أم انا تعاهدنا على ان لا نرضخ لاي احكام تلفظها الدولة ؟ » وإذا تعجبنا من كلام القوانين فقد تقول : « لا تعجب من كلامنا يا سقراط ولكن اجبنا فانك معتاد طرح السؤال وردّ الجواب . ما الذي تشكوه منا ومن الدولة حتى تحاول هدمنا ؟ السنا ، اولاً ، اهلك وذويك ؟ بنا أخذ ابوك امك فولداك . خبّرنا هل لك اعتراض على قانون الزواج ؟ » « كلا » ، سيكون جوابي . ام هل تنتقد تلك القوانين التي تنظم تربية الطفل وتثقيفه ، وقد تثقفتَ بها مثل الكثيرين سواك ؟ ألم نحسن صنعاً إذ أمرنا والدك ان يعلمك الرياضة والموسيقى ؟ » . « قد فعلت ذلك » ، سأجيب . « ما دمنا إذن قد اتينا بك الى العالم وربيناك وثقفناك فكيف تنكر انك ولدُنا وعبدُنا كما كان ابوك من قبل ؟ وإذا كان الامر كذلك فهل تحسب حقوقك معادلة لحقوقنا ؟ وهل تعتقد انه يحقّ لك ان تنتقم منا إذا حاولنا ان نفعل بك شيئاً ؟ انك لا تملك مثل هذه الحقوق بالنسبة لأبيك ولا بالنسبة لسيدك فيما لو كنت عبداً . لا يحق لك ان تنتقم من ابيك او مولاك إذا اساءا معاملتك ، ولا ان تجيبهما إذا وبخاك ، ولا ان تضربهما إذا ضرباك ، ولا ان تقابل شرهما بشرّ باي حال . وهل تعتقد انه يجوز لك ان تنتقم من بلادك ومن قوانينها ؟ وان حاولنا اعدامك معتقدين انا على حق ، فهل تعمل ما تستطيع لاعدامنا نحن القوانين واعدام البلاد مدعياً انك تفعل بذلك الصوابَ ، انت الرجل الذي يقدر الفضيلة كل التقدير ؟ افلا ترى ان بلادك افضل منك ، واجلّ ، واكرم ، واقدس ، واشرف بنظر الآلهة وجميع العقلاء من ابيك وامك واسلافك كافةً ، وان واجبك المفروض ان تقدّسها وتطيعها وتخشع لها اكثر من خشوعك لابيك حين يغضب عليك .

وان تفعل ما تامرك به او ان تحملها على الصفح عنك ؛ وان تطيعها بصمت اذا امرتك ان تحتمل الجلد او السجن ، او ارسلتك الى الحرب لتجرح او تموت ؟ .

هذا هو واجبك . يجب عليك الا تستسلم ولا تتراجع ولا تتخلى عن وظيفتك . في الحرب ، في محكمة العدل واينما كان ، يجب ان تفعل ما تأمرك به مدينتك وبلادك ، او ان تقنع المدينة والبلاد ان مطالبها ظالمة . إنه مخالف لشريعة الله ان تؤذي امك او اباك ، وانه لاعظم من ذلك بكثير ان تلحق الاذى ببلادك . »

رجل الدولة امام المسئوليات

« من خطبة التاج لديوستين : القى ديوستين هذه الخطبة سنة ٣٣٠ قبـــل الميلاد تأييداً لاقتراح قدمه ستيزيفون (Ctesiphon) يطلب فيه ان تمنح آثينا ديوستين تاجا من ذهب رمزاً لتقديرها له واعترافا بخدماته . وقد كانت فرصة انتهزهـــا ديوستين ليبرر نهجه السياسي وسيرته العامة ومقاومته لتوسع فيليب المكدوني . وكان المدعي العام في تلك القضية آخين (Aeschines) ، الثاني بين خطباء آثينا ، واصغت اليونان الى تلك المناظرة العظيمة المتعة ثم حكم الآثينيون لديوستين رجل الدولة الذي مثل في نظرهم ، رغم فشله في مقاومة فيليب ، ما تبقى من كرامة آثينا ومجدهـــا ولم يبق امام آخين سوى الانصراف الى منفاه .

ويعتبر النقاد خطبة التاج اعظم خطاب لاعظم خطيب في التاريخ . »

•

ان الفتوح التي فتحها فيليب واحتفظ بها قبل ان ابدأ حياتي كرجل دولة وخطيب ، سأتجاوز عنها لانها لا تعنيني . اما تلك التي حازها منذ اضطلعت بالواجبات العامة فاني ذاكرها لكم وواضعٌ عنها حسابا ، مقدما بين يديكم ان فيليب ابتدأ بمزية كبرى . فقد حدث ان نشأ بين اليونان محصول كبير من الخونة والاشقياء المأجورين كما لم ينشأ من قبل . من هؤلاء

اتخذ فيليب عماله واعوانه . واليونان ، وقد كانوا متعادين قبله ، ازدادت حالهم سوءاً بعـــده اذ خدع قوما ، واغرى قوما ، وافسد آخرين بشتى الوسائل وفرّقهم الى شيع عديدة بينما كانت لهم مصلحة واحدة في وَقْف توسعه .

حين كان جميع اليونان على تلك الحال ، متجاهلين الشر المتزايد النامي، عليكم يا رجال آثينا ان تنظروا اي سياسة واية تدابير كان يجدر بالدولة ان تتخذ ؛ ولكم ان تسمعوا مني بيانا عنها لاني كنت الرجل المسئول في مركز الحكم .

•

هل كان يتوجب على آثينا ، يا آخين ، ان تتخلى عن نفسها وكرامتها وتساعد فيليب على امتلاك اليونان ، وتبيد بذلك حقوق اسلافنا ومجادهم ؟ واذا لم تفعل ذلك وتجلب عـلى نفسها العار فهل كان من الصواب ان تسمح بوقوع شرٍّ كانت تخشاه وكان لا بد ان يقع اذا لم يُمنع او يُصد ؟

اني اسأل اقسى النقاد واللائمين في اي معسكر كان يود ان يرى الدولة ؟ اني معسكر اولئك الذين جلبوا الكوارث والفضائح لليونان ، ام اولئك الذين سمحوا بوقوع كل ذلك طمعاً بنفعٍ شخصي ؟ لكن اكثر هؤلاء ، او جميعهم على الاصح ، قد تعثّروا اكثر منا . ولو ان فيليب انسحب بعد انتصاره وجنح للسلم دون ان يكدر خاصة حلفائـه وسائر اليونان لكان استحق اللوم والعتاب من قاوم مشاريعه . ولكن بعد ان جرد فيليب الجميع عـلى السواء من كرامتهم وسلطانهم وحريتهم ، وحتى من دساتيرهم حيث استطاع ، فهـــل من يشك انكم سلكتم امجد طريق في اتبـــاع مشورتي ؟

لكني اعود الى السؤال — ماذا كان على الدولة ان تصنع ، يا آخين ، حين رأت فيليب يبسط ملكه وسلطانه على اليونان ؟ وماذا كان على رجل الدولة ان ينصح او يقترح ؟ ماذا كان عليّ ان افعل انا رجل الدولة في

آثينا ؟ أنا الذي يعلم ان بلادي قاتلت على الدوام في سبيل السبق والشهرة والشرف ، وبذلت من الدماء والثروات لاجل المجد وخير الدولة اكثر مما بذل سائر اليونان مجتمعين في سبيل مصالحهم المختلفة ؟ انا الذي رأيت فيليب عدوّنا الالد ، قد قُلعت عينه من اجل الملك والسلطان ، وكسر عظم الترْقُوَة ، وشوّهت يده وساقه وكان مستعداً ان يضحي باي جزء يختار القدر من جسمه ، على شرط ان يعيش بما تبقى في المجد والشرف .

هل فيكم من يجرأ على القول انه يجدر برجل نشأ كفيليب في مكان خامل وضيع ان يملك مثل هذه الشهامة الاصيلة فيطمح بالسيطرة على اليونان ويتصور المشروع الجسيم ؛ بينما انتم ، اهل آثينا ، الذين تذكّركم الخطب والمسرحيات كل يوم بفضائل اسلافكم ، تبدون المهانة والصغار وتسلمون لفيليب مختارين ، حرية اليونان ؟ لن يقول احد منكم بهذا .

لم يكن امامنا اذن غير طريق المقاومة المشروعة لجميع ضرباته . وقد سلكتم تلك الطريق منذ البدء كما يليق وينبغي ، وانا ساهمت بالرأي والمشورة طيلة حياتي السياسية . وإني معترف بذلك .

الم يَجُرْ فيليب ويظلم ويعتدِ ؟ اما فسخ الهدنة ونقض الصلح واهلك المدن وشرّد الاحرار ؟ الم يكن من اللائق ان يقدم احد من اليونان ويمنع هذه التصرفات ؟ اذا لم يكن الامر كذلك واذا كان على اليونان ان تعرض مشهد فريسة ضعيفة ، والآثينيون في الوجود ، فاني اكون قد تجاوزت واجبي في المشورة ، وتكون الدولة تعدت واجبها في اتباع مشورتي ، واعترف بان كل عمل كان خطأ مني وسوء تدبير . ولكن اذا كان ينبغي ان يهب احد ليمنع هذه الامور فمن يكون غير الشعب الآثيني ؟

تلك اذن السياسة التي انتهجت . وجدت فيليب يخضع كل الناس فقاومته . ولبثت انبهكم واحذركم من تقديم تلك الضحايا لفيليب .

كان واجب المواطن الفاضل يقضي حينذاك ان يتقدم ، ان كانت له خطة فضلى ، بتلك الخطة ، لا ان يبحث الآن عن الاخطاء . فرجل

الدولة والسياسي الحقير لا يختلفان اكثر من اختلافهما في هذا ؛ ان الاول يعلن عن رأيه قبل الاحداث ويجعل نفسه مسؤولاً امام اتباعه وامام القدر والتاريخ والناس جميعاً ؛ اما الآخر فيصمت حين يجب الكلام ويبدأ بالتذمر بعد وقوع الكارثة .

في ذلك الظرف العصيب كان وقت الكلام والنصح الصادق لمن احب الدولة . لكني اذهب الى ابعد من ذلك فاقول : اذا استطاع الآن احد ان يصف سياسة خيراً من سياستي ، او اذا وجدت سياسة عملية غير السياسة التي اتبعت ، فاني أقرّ بالخطأ . واذا اكتشف الآن تدبير كان من الخير ان يُلجأ اليه في ذلك الحين فاني اعترف بانه كان ينبغي ألا يفوتني ذلك التدبير . اما اذا لم يكن شيء من هذا ، واذا لم يوجد قط ، ولا يمكن ان يُقترح حتى في هذا التاريخ فماذا على رجل الدولة ؟ اما كان عليه ان يختار افضل التدابير التي في وسعه وفي متناول يده ؟

هذا ما فعلتُ انا ، يا آخين ، عندما نادى المنادي : « من يريد الكلام ؟ » لا « من يريد ان يشكو الماضي او يضمن المستقبل ؟ » . وبينما جلستَ انت في تلك الظروف اخرس لا تبدي رأياً في الاجتماع ، تقدمتُ الصفوف انا وتكلمت . وبما انك بخلتَ حينذاك فحدثنا الآن . قل ، اي حيلة كان يجب ان استنبط ؟ اي فرصة سانحة اضاعتها الدولة باهمالي ؟ لأي حلف ولأي سبيل كان عليّ ان اوجّه الشعب ؟ ولكن لا ! الماضي مفروغ منه عند جميع الناس ولا احد يقترح ان نبحث فيه . اما المستقبل ، اما الحاضر ، فهو الذي يتطلب عمل المشير الناصح . في ذلك الحين ، كما يبدو ، كانت اخطار واقعة ، وكانت اخطار وشيكة الوقوع . تامل نهج سياستي في الأزمة ولا تعيرني بالنتيجة . فنهاية كل الاشياء كما تشاء الآلهة ، وانما يُظهر دهاءَ رجل الدولة نهجُ سياسته . فلا تسجّل علي جريمة ان قدّر لفيليب ان يظفر في القتال . نتيجةُ القتال رهن بمشيئة الله لا بمشيئتي . أمّ البرهان على اني لم اتخذ جميع التدابير الممكنة حسب

التقدير البشري ، واني لم انفذها بصدق وجدّ واجتهاد الى ابعد حدود الامكان ، وان مشاريعي لم تكن ضرورية ومشرّفة وجديرة بالدولة . أرني هذا وسارع بعد ذلك الى الاتهام .

اما اذا كانت الأعاصير التي هبت علينا اقوى منا واقوى من جميع اليونان فما هو النهج السليم ؟ هل يعدّ التاجر مسؤولاً عن غرق السفينة اذا اتخذ كل الاحتياط قبل الابحار وجهزها بكل ما يضمن سلامتها ثم صادفته زوبعة وقطعت الحبال ؟ يستطيع التاجر ان يقول : « ولكني لم اكن الربان » ، كما اني لم اكن قائد الجنود . القدر لم يكن في يدي ، وكان كل شيء في قبضة القدر ...

اذا كان المستقبل مكشوفاً لك فقد كان عليك وحدك ، يا آخين ، ان تحذرنا عندما كانت الدولة تتذاكر في تلك الشؤون . واذا لم يكن عندك علم الغيب فأنت مسؤول مع الآخرين عن الجهل نفسه . كيف تتهمني اذن ولا اتهمك ؟ كنت مواطناً افضل منك في كل ما ذكرت (اما الامور الأخرى فلا أبحثها الآن) اذ أسلمت نفسي للخير العام ، ولم أنفر من اي خطر يهدد شخصي ، ولم أفكر قط بالأخطار . اما انت فلا اقترحت خطة خيراً مما اقترحت ولا أسعفتني في إنجاز خطتي . وفعلت بعد وقوع الخطب ما يفعل أحقر الرجال وشرّ أعداء الدولة . وفي الوقت الذي نجد أعداءنا الألداء ارستراتوس في نكساس وارستولوس في ثاسوس ، يجرّون اصدقاء اثينا الى المحاكم ؛ يقوم آخين في اثينا ليتهم ديموستين . حقاً ان الرجل الذي انتظرَ ليبني شهرته على مصائب اليونان لهو رجل يستحق ان يهلك لا ان يتهم الآخرين . والرجل الذي افاد مع الاعداء من ذات المصيبة لا يمكن ان يريد لبلاده الخير . فضحتَ نفسك ، يا آخين ، بحياتك وسيرتك ، بخطبك وبصمتك . اهناك أمرٌ جارٍ فيه الخير للشعب ؟ آخين اخرس ايكم اعمى ، اهناك خطأ أمرٌ ازمة او كارثة ؟ الى الامام يتقدم آخين . شأنه شأن الجراثيم تنشط عندما يضعف جسم الانسان .

ولكن بما انه يصر كثيراً على اخذي بالنتائج فاني سأقول قولاً غريباً واتوسل اليكم الا تدهشوا من جرأة الزعم وتأملوا ما اقول . حتى لو كانت النتائج معروفة لدى الجميع قبل وقوعها . حتى لو سبق فرآهـا الجميع وتنبأت انت بها ، يا آخين ، واعترضت على خطتي بصراخ وضجيج - انت الذي لم تفتح فمك قط - حتى في تلك الحال ما كان ينبغي للدولة ان تقلع عن خطتها ما دام فيها اي اعتبار للمجد او السلف او المستقبل .

أما ان تكون الدولة قد فشلت في مسعاها ، فذلك امر يتعرض له جميع البشر حين تشاء السماء . اما ان تدعي اثينا السبق والتقدم على الغير ثم تتنازل عن دعواها فعمل يعرضها لان تُتهم بالخيانة والتآمر مع فيليب . ولو انا سلمنا بدون قتال ما ربحه الاسلاف بركوب كل خطر لبصق في وجهنا الناس . اني انزه الدولة عن هذا وانزه نفسي .

قولوا لي باي عين كنا نقابل الغرباء الطارئين على مدينتنا لو ان النتيجة كانت نفسها وكان فيليب قد انتخب زعيما وملكاً على الجميع وكان قاوم فيليب شعب غيرنا مع ما هو معروف عن بلادنا في الايام الخالية من انها لم تؤثر قط السلامة المخزية على الحرب المشرفة . اي يوناني او اي بربري يجهل انه كان باستطاعة اثينا ان تحصل من اهل طيبة ، او من اهـل سبارطة قبلهم ، او من ملك الفرس على ما تريد بشرط ان تقبل الحكم الاجنبي وتترك لغيرها زعامة اليونان ؟ ولكن كان يبدو للاثينيين في ذلك الزمن ان مثل هذا السلوك لا يكون وطنياً او طبيعياً او باقياً . لم يكن احد ليستطيع في اي وقت مضى ان يحمل اثينا على ان تخضع للقوي الظالم التماساً للأمن والسلامة . واستمرت تقاتل في كل عصر من اجـل السبق والشرف . وانكم لتعتبرون ذلك من النبل ومن الموافقة لمبادئكم بحيث انكم تمجدون من اسلافكم اعظم التمجيد اولئك الذين عملوا بوحي هذه الروح ، وبحق تفعلون ذلك . فمن لا يُعجب بفضيلة اولئك الرجال الذين ركبوا زوارقهم بثبات وآثروا هجر الأهل والوطن على قبول

حكم الاجنبي ، واختاروا من اشار عليهم بهذا قائداً لهم ورجموا حتى الموت من نصح بالتسليم ، ورجمَ نساؤكم امرأته ايضاً . اجل ان اثيني ذلك الزمان لم يبحثوا عن خطيب او قائد يسوقهم الى امن العبودية. انهم أنفوا ان يعيشوا بدون حرية ، وكان كل واحد منهم يعتقد انه لم يولد لأبيه وأمه فحسب وانما ولد ايضاً لبلاده . ما هو الفرق ؟ ان الذي يظن نفسه مولوداً لأهله فقط ينتظر نهايته الطبيعية المحتومة ؛ اما الذي يعتقد انه ولد لبلاده ايضا فانه يفضل ان يهلك قبل ان يراها في الرق . ويعتبر الاهانة والتحقير الذي لا بد من احتماله في دولة مستعبدة ، افظع من الموت .

ولو زعمتُ اني ادبتكم بأدب اسلافكم فلا يبقى رجل واحد لا يؤنبني ، وانما اقول ان مثل هذه المباديء هي مبادئكم الخاصة ؛ وابرهن على ان روح الدولة كانت كذلك قبل زماني ، رغم اني اطالب بنصيبي من الفخر في انجاز الاعمال .

•

ان المدّعي إذ يعرض جميع اعمالي للاتهام ، وإذ يثيركم عليَّ كمسبب للمخاوف الحاضرة والاخطار ، وفي تلهفه على ان يحرمني من الشرف ، انما يسلبكم الحمد والثناء الذي يجب ان يبقى لكم الى الابد . فاذا ادنتم المدعى عليه لعدم اقتناعكم بحكمة سياستي فانكم ستبدون امام الناس كانكم اخطأتم وأثمتم لا كأنكم تحملتم ما اصابكم من قسوة القدر . لكنكم لا يمكن ابداً أن تكونوا اخطأتم في خوض المعركة من أجل حرية الجميع وسلامة الجميع . أُقسم على ذلك باجدادكم — اولئك الذين لاقوا الهلاك في « ماراثون » ، واولئك الذين نزلوا الميدان في « بلاتا » والذين قاتلوا في « سلاميس » و « ارتيميسيون » وكثير غيرهم من ابطال الرجال الذين يرقدون تحت النصب التذكارية العامة . جميع اولئك استحقوا الشرف نفسه ، ولم تدفن

الدولة الناجحين او الظافرين فحسب ، لان واجب الشجاعة اداه الجميع ، اما حظهم فكان كما اعطت الآلهة لكل منهم ...

•

ايها الآثينيون ، عرفتم قبلي خطباء عديدين ، عظماء ومشهورين ؛ لكن احداً منهم لم يكرس نفسه بالكلية لاي قضية من قضايا الدولة . فمقدم الاقتراح مثلا لا يكون سفيرا ، والسفير لا يقدّم مشروع قرار ، ويترك كل واحد لنفسه مخرجا ومجالا للعذر اذا حدث ما ليس بالحسبان . قد يقال : كيف تخطّيت انت الآخرين في الجرأة والسلطان وفعلت كل شيء بنفسك ؟ اني لا اقول هذا ، ولكن كان شعوري بالخطر المحدق شعورا لا يترك مكانا للتفكير بسلامة شخصي . وقد كان يكفيني ان اقوم بالواجب بدون تقصير . وكنت مقتنعا ، ربما عن حماقة ، لكني كنت مقتنعا بان احدا من الناس لا يستطيع ان يقدّم قرارات خيرا مني ، وان احدا لن ينفذها مثلي ، وان احدا لن يكون في السفارة اكثر حمية وامانة . لذلك كله اخذت على عاتقي كل شيء ...

افهموا عني ما أقول . ان كل ما يُسأل عنه رجل الدولة فلكم التدقيق فيه والاستقصاء . هذا شيء لا اتهرب منه . ما هي وظائف رجل الدولة ؟ ان يرى الاشياء على حقيقتها منذ البدء وينبّه اليها الاخرين — وهذا ما فعلت . وحيثما وجد توانياً او تأخرا او جهلا او حسدا او آثاما لا تبرأ منها المجتمعات فانه يضيّق افقها ويقلّص ظلها ، ويبعث من جهة اخرى ، روح الاجماع والصداقة والحمية في النهوض بالواجب . كل هذا فعلت ، ولا يستطيع احد ان يسجل عليّ اقل تقصير . سلوا ايا كان ، باي الوسائل ادرك فيليب اكثر انتصاراته ، بجيشه وبرشوة رجال الحكم وافسادهم . ان قواتكم المسلحة لم تكن تحت امرتي او مراقبتي ، فلا يمكن اذن ان أُسأل عن اي شيء في هذا الباب . ولكني اذ رفضت ثمن الخيانة

قهرت فيليب وتغلبت عليه . وكما ان الذي يقدم الرشوة يقهر المرتشي في حالة القبول كذلك يقهر الراشيَ من يرفض الرشوة ويترفع عن الفساد . وهكذا تكون الدولة غير مقهورة ولا مغلوبة بالنسبة اليّ ....

جميع الناس يبرئون ساحة اثينا من تلك المؤامرة الوضيعة على اليونان ومن خيانة قضيـة الحرية ، والفضل في ذلك يرجع الى مشورتي ، وها انتم تبرئون ساحتي . افتسألني بعد هذا يا آخين باي حق اطلب التكريم ؟ اليك الجواب : بينما كان جميع الساسة في اليونان ، واولهم انت ، يبيعون انفسهم لفيليب كما يبيعونها اليوم للاسكندر ، لم تستطع الفرصة السانحة ولا الكلام الجميل ، ولا الوعود الضخمة ، ولا الامل ولا الخوف ولا اي شيء آخر ان تحملني عـلى التخلي عمـــا أعتبره حقا ونافعا لبلادي . لم انصح المواطنين كما تنصحون انتم ملتمسين في كل شيء جانب الربح . كانت كل افعالي افعال نفس قوية شريفـة لا تشرى ولا تباع . وُكلت اليّ امور اعظم مما وُكل لاي رجل في زماني فنهضت بها جميعا بشرف وامانة . لذلك أطلب التكريم .

•

اما تلك التحصينات التي تهزأ بي من اجلهـــا والسوُر والخندق ، فاني اعتبرها مستحقة للحمد والثناء . لكني لا اقيسها مطلقا باعمـالي في السياسة والادارة . لا بالحجارة ولا بالقرميد حصنت آثينا . وليس ذلك بالعمل الذي أفخر به اكثر الفخر . ولو نظرت نظرة صائبة الى تحصيناتي لوجدت سلاحاً ودولاً وفلاعـــاً وموانيء ومراكب وخيولا ورجالا يقاتلون . تلك هي الحصون التي حميت بها « اتيكا » كأفضل ما تستطيع الحكمة البشرية ان تحمي الثغور .

هذه واعمال اخرى مثلها يا آخين تليق بالمواطن الفاضل . (ولو كُتب النجاح لتلك الاعمـــال لكنا اصبحنا اعظم شعب بدون نزاع ، وحتى في الفشل ربحنا المجد . ولا يلوم احدٌ آثينـا وسياستها ، والكل يلومون القدر

الذي اجرى الامور على ذلك النحو) .

●

ان المواطن الفاضل لا يهجر مصالح دولته ابدا ولا يؤجر نفسه لاعدائها ويلتمس خير العدو دون خير بلاده ، ولا يلقي نظرة زوراء على رجل كانت له الجرأة في ان يشير ويقترح التدابير الجديرة بالدولة وعنده الحزم والثبات للمضيّ في العمل . واذا تحداه احد الناس شخصيا فلا يذكر التحدي ويحفظه في نفسه للانتقام . كلا ولا يبقي نفسه في اعتزال مجرم خائن كما فعلت مراراً . لا شك ان هناك عزلة كريمة نافعة للدولة كالعزلة التي يتمتع بها جمهور المواطنين بطهارة وبراءة ، لكنّ لعزلة آخين شأنا آخر . انه ينسحب من الحياة العامة حين يشاء (وكثيرا ما يشاء) ويترقب لحظة تملون فيها خطيبا دائما او محنة تصيبكم او حادثا سيئا يحدث (وكثيرة هي الحوادث في الحياة البشرية) . وفي ازمة كهذه يهب آخين خطيبا ، مندفعا من مخبأه كالريح بصوت جهوري وكلمات وعبارات مجموعة ومحفوظة يرددها ، لا للفائدة ولا للخير ، وانما ليهدم مواطنا من مواطنيه وينشر الفضيحة والعار .

للمواطن الفاضل مزيتان يا رجال آثينا . في الحكم هدفه الدائم كرامة الدولة ورفعة شأنها ؛ وفي جميع الظروف يتصف بروح الولاء ، وهذا كله يتوقف على الطبيعة ؛ اما القوة والسلطان فيتوقفان على امور اخرى . وانكم لتجدون اني حافظت على ولائي بكل اخلاص . فحين كنت ملاحقا ، وحين اقاموا علي الدعاوى ، وحين هددوا وحين وعدوا وعندما سلطوا عليّ هؤلاء اللئام لينهشوني كالحيوانات الضارية ، لم اتخل مطلقاً عن حبي لكم . واخترت منذ البدء خطة شريفة مستقيمة في السياسة وهي أن اعزز شرف الدولة ومجدها وسلطانها ، أعزّز هذه جميعاً ، وأحقق بذلك كياني .

اني لا امشي في الاسواق مرحاً فرحاً بتوفيق الغريب ولا ابسط يدي اليمنى مهنئاً من أعتقد انه سيذكرها هناك . واذا ما وردت الانباء عن

ظفرنا لا ارتعد ولا اتأوّه ولا اطأطىء رأسي الى الارض كما يفعل رجال العقوق الذين لا يتقون الله والذين يعيّرون اثينا كأنهم بذلك لا يعيرون انفسهم ؛ الذين يتطلعون إلى الخارج وإذا افلح الغريب في انزال الشقاء باليونان فأنهم يغتبطون ويقولون يجب ان نساعد على فلاحه الى الابد .

حاشا لك ايتها الآلهة ان تحققي تلك الآمال . وابعثي في هؤلاء الرجال روحاً اسمى وشعوراً ارفع . وإذا كان لا يرجى لدائهم شفاء فأهلكيهم واقطعي دابرهم في البر والبحر ، وألهمي الباقين منا ان ينعتقوا من مخاوفهم الحاضرة ويظفروا بالخلاص .

ابناء روما

« من اراد ان يعرف معدن الرجال الذين صنعوا روما يجب ان يقرأ حياة كاتو (Cato) . وبين يدي القاريء مقتطفات من سيرته كما رواها بلوتارك (Plutarch) ، قد تكفي لاعطاء فكرة عامة عن ذلك المزيج العجيب من الروح العامة والقسوة المتناهية والحياة العائلية النبيلة . ولا شك في ان بعض نواحي تلك الحياة يثير اشمئزاز رجل انساني مثقف كبلوتارك . لكن بلوتارك رأى ، على كل حال ، عظمة الخلق الروماني وانصفه فيما كتب .

لقد جمع بلوتارك في تاريخه سير عظماء اليونان والرومان ، وحبذا لو نقلت تلك السير بكاملها الى اللغة العربية ليقرأها النشء العربي كما يقرأها الطلاب في اوروبا واميركا . انها مدرسة رائعة في الوطنية وكبر الهمة . »

•

في اول العمر اكتسب كاتو بنية جيدة بالخدمة العسكرية ، وكان يعيش باعتدال ويعمل بيديه ، وكان قوياً بالجسم والصحة جميعاً .

وعند زحف الجند كان يسعى على قدميه ويحمل سلاحه يتبعه خادم واحد حاملاً الزاد والمتاع . ويحكى ان كاتو لم يغضب على خادمه قط ولم يخطئه في شيء ، وانه كان يساعده عادة في تحضير الطعام ما لم يشغله عن ذلك الواجب العسكري . وكان يشرب الماء في اثناء الحملة ، ويمزجه بالخل عند الظمأ ، ويتناول قليلاً من الخمر عند انحطاط قواه .

وكانت مزرعة مانيوس كوريوس (Manius Curius) الذي سجل ثلاثة انتصارات ، قريبةً من عقاره . وكان كاتو يتردد عليها كثيراً ، وقد لاحظ مساحتها اليسيرة والمسكن البسيط ، وتأمل في امر صاحبها الذي راح يحفر تلك المزرعة الصغيرة بيديه ويعيش في ذلك الكوخ بعد ان اصبح اعظم رجل في روما وطرد بيروس (Pyrrhus) من ايطاليا .

وهنا حدث ان دخل سفراء سامنيوم (Samnium) على كوريوس وهو يغلي اللفت على الموقد ، وقدموا له مبلغاً كبيراً من المال ؛ ولكنه صرفهم قائلاً : ان رجلاً يكفيه هذا الطعام لا يحتاج الى ذهب ، وانه يعتقد انه اشرف له ان يقهر الذين يملكون الذهب من ان يملك الذهب هو نفسه .

وبعد التأمل في هذه القصة ذهب كاتو واعاد النظر في مزرعته الخاصة وفي خدمه ، وخفض جميع النفقات غير الضرورية وزاد في عمله اليدوي . وكان يسعى في الصباح الباكر الى المحاكم ويساعد موكليه ؛ ثم يعود الى مزرعته ويعمل مع خدمه ويجالسهم ويأكل معهم من نفس الطعام ويشرب من نفس الشراب ، وهو يقول انه عندما كان قنصلاً وقائد جند كان يشرب من نفس الخمر التي تُقدّم إلى عماله .

وكان ضبطه لنفسه مدهشاً . وحين قاد الجيش لم يأخذ لنفسه ولصحبه اكثر من مئة كيلو غرام من القمح في الشهر واقل من خمسين في اليوم لخيله . وعندما كان حاكماً على سردينيا حيث كان اسلافه يصادرون الخيام والفرش والثياب ويرهقون الخزينة العامة بتكاليف الولائم والحفلات ونفقات العدد الكبير من الخدم والاصدقاء ، كان هو يقتصد اقتصاداً يصعب تصديقه . لم يكن ليكلف الخزينة شيئاً فهو لا يركب عربة وانما يزور المدن والقرى مشياً على الاقدام لا يتبعه غير جندي واحد يحمل له العباءة وكأساً لتقديم القربان . ومع انه كان سهلاً ليناً مع رجاله كان يُظهر اقصى الشدة والضبط في كل ما يتعلق بالعدالة العامة وكان صارماً دقيقاً في تطبيق القوانين وتنفيذ اوامر الدولة ، حتى ان الحكم الروماني لم يبدُ قط اكثر هولاً

واكثر احساناً مما كان على ايام كاتو .

واني مقتبس بعض اقواله المشهورة المذكورة . قال مرة وهو ينتقد ترف الرومان : « من الصعب ان يُكتب البقاء لدولة تباع فيها السمكة باكثر من ثور . » وقال عند الكلام على سلطة النساء في روما : « كل البشر يحكمون نساءهم ، ونحن نحكم البشر والنساء يحكمننا . » وقال للرومان : « إذا كانت عظمتكم قد جاءت عن طريق الفضيلة وضبط النفس فلا تغيروا من عاداتكم شيئاً ، اما ان كانت قد اتت عن طريق الأباحة والأثم فاستبدلوا بها أحسن منها لان تلك الصفات قد جعلتكم عظماء حقاً . » وكان يقول انه خير له ان يفوته الجزاء الحسن على اعماله الصالحة من ان يفوته القصاص على العمل السيء ، وانه يستطيع ان يعفو عن كل المسيئين إلا إذا كان هو المسيء . وقال انه ندم على ثلاثة اشياء في حياته : اولاً ، انه ائتمن امرأة على سرّ ، وانه ركب البحر حيث كان يستطيع ان يسعى على قدميه ، وانه بقي يوماً كاملاً بدون عمل . وخاطب مرة شيخاً آثماً طاعناً في السن قائلاً : « للشيخوخة عيوب كثيرة فلا تضف اليها عار الأثم . »

وبعد فنصليته بعشر سنين رشح نفسه لوظيفة المراقب العام ، التي كانت تعتبر غاية المجد ، وبكلمة ، اعلى درجة في الشؤون المدنية ، فهي الى جانب سلطات كثيرة كانت تخوّل صاحبها سلطة التفتيش والتحقيق في حياة كل فرد ؛ إذ رأى الرومان ان شئون الزواج وتربية الاطفال ، حتى الولائم وحفلات الشراب ، لا يجوز ان تُترك لشهوة كل فرد وهواه بدون مراقبة واشراف . لذلك اختاروا رجلين ، رجلاً من النبلاء وآخر من العامة ، ليراقبا ويؤدبا كل من يسترسل في الشهوات او يخالف الآداب المرعية في بلاده ، واطلقوا عليهم لقب « المراقبين » .

ولقد عاكست الارستوقراطية الرومانية ترشيح كاتو وتقدمت بسبعة مرشحين تملقوا الناخبين وبذلوا لهم الوعود الجميلة ، ظناً منهم ان الشعب

يريد حكومة رفيقة متساهلة . اما كاتو فلم يعد بالرفق والتساهل وانما توعّد المسيئين صراحةً وعلى المنابر وأعلن ان المدينة في حاجة الى حملة تطهير كاملة ، وناشد الناس ان يختاروا اقسى الأطباء ، اذا كانوا عقلاء ، لا الطف الأطباء . وهكذا كانت روما عظيمة حقاً وجديرة بابنائها العظماء حتى انها لم تخشَ صرامة كاتو وشدة بأسه ، بل نبذت المتملقين الذين اظهروا استعدادهم ليفعلوا كل شيء ارضاء لها .

[ثم يذكر بلوتارك بعض قضايا اظهر فيها كاتو شدة وحزماً ، الى ان يقول] :

لكنه سبّب تذمراً عاماً بمحاربته التنعم والترف . لقد كان القضاء التام على الترف مستحيلاً لأن الداء كان عضالاً مستفحلا ، لكن كاتو لم يقدم على الغاء الترف جملة وانما هاجم بعض نواحيه واصدر تعليماته بان تقدّر الثياب والعربات وحلي النساء وأثاث البيوت التي يزيد ثمنها على الف وخمسمائة درهم * بعشرة اضعاف قيمتها ، قاصداً بذلك ان تزيد الضريبة على تلك السلع . وفرض على من يقتني الف حمار ثلاث حمير تدفع ضريبة للخزينة لكي يقلع المسرفون عن اسرافهم حين يثقلون بهذه الضرائب الاضافية ويرون امثالهم في الغنى ، المقتصدين في الانفاق ، يدفعون للخزينة العامة اقل منهم بكثير .

وقد نقم على كاتو الذين أكرهوا على دفع الضرائب المتصاعدة ونقم عليه ايضاً اولئك الذين اقلعوا عن ترفهم خوفاً من الضرائب . على ان كاتو لم يبال بالمترفين الذين كانوا ينتقدونه ويهاجمونه وانما زاد في الشدة والصرامة . ويبدو ان الشعب احب حكمه حتى انهم نصبوا له تمثالاً في هيكل آلهة الصحة ، ولم يشيروا الى انتصاراته في الحروب وانما نقشوا على قاعدة التمثال :

[هذا هو كاتو . بنظامه الصالح وقوانينه الحكيمة الفاضلة انقذ

---

* الف وخمسمائة درخمة (عملة يونانية) ويعادل هذا المبلغ ستمائة ليرة سورية .

الامبراطورية الرومانية حين بدأت تنغمس في الاثم وتنهار .]

وكان كاتو الى ذلك ابا رحيما وزوجا كريما ورجل اقتصاد واعمال . واختار زوجته لنسبها لا لغناها . وكان يرى ان الغنية والنسيبة كلتاهما متكبرة متشامخة الا ان الثانية اعفّ من الاولى . وكان يقول : « لان تكون زوجا صالحا خير من ان تكون سياسيا عظيما . » وكان اكثر ما يعجبه في سقراط رعايته لزوجته السليطة وابنائه الاغبياء . وعندما ولد ابنه لم يعد يغادر البيت الا لشأن عام . وحين شب الصبي اخذه كاتو وعلمه القراءة والكتابة رغم انه كان يملك معلما ماهرا من العبيد علّم الكثيرين . لكن كاتو لم ير من اللائق ان يترك ابنه لعبد فيوبخه أو يقرص اذنه اذا ابطأ في تحضير الدروس ، ولا يحب ان يكون ابنه مدينا لعبد في امر عظيم كامر العلم . لذلك كله علّم كاتو ابنه النحو والقانون وفنون الرياضة بنفسه . ولم يكتفِ بتعليمه الرماية واستعمال السلاح وركوب الخيل بل علمه ايضا كيف يصارع ، ويحتمل الحر والقر ، ويعوم في اشد الانهار جريا . وكتب بيده تاريخا ، بحروف كبيرة ، ليطلع ابنه دون مغادرة المنزل على سير اجداده وابناء بلاده وقدماء الرومان . وكان يتحاشى هُجر القول والكلام النابي في حضور ابنه .. وهكذا ادبّ كاتو ابنه تأديبا ممتازا وانشأه على حب الفضائل .

وكان كاتو شيخا كبيرا عندما قدمت روما بعثة من آثينا بين أعضائها كرنيادس (Carneades) الافلاطوني وديوجينس (Diogenes) الرواقي . واجتمع حول هؤلاء الفلاسفة شباب روما المفكر واستمعوا باعجاب الى محاضراتهم واحاديثهم . وجذبت خطابة كرنيادس جموعاً غفيرة واجتاحت شهرته المدينة كالريح . وتحدث الناس عن يوناني عجيب فتن الشباب فانصرفوا عن اللهو والمسرات واندفعوا وراء الفلسفة . وسرّ الرومانيون عامة باقبال الشباب على الادب اليوناني وبمجالستهم للعلماء . اما كاتو فكره ان يرى هذه الرغبة في علم الكلام تعمّ روما ، وخشي ان ينحرف الشباب

فيفضلوا صناعة الكلام على مجد السلاح وشرف العمل ، وصمم على اخراج تلك البعثة من روما . ونهض في مجلس الشيوخ يوجه اللوم للحكومة لانها ابطأت في حل قضية البعثة وسمحت بالاقامة الطويلة لرجال يستطيعون ان يقيموا البرهان على اي شيء ويُقنعوا ايا كان . وحث المجلس على سرعة البت في القضية حتى يرجع الفلاسفة الى مدارسهم ويعلموا ابناء اليونان ، تاركين الشباب الروماني لقوانين روما وساستها .

وألف كاتو كتباً مختلفة وتواريخ ، وكانت مائدته عامرة في بيته الريفي وكان يدعو اصدقاءه وجيرانه كل يوم ويقضي الوقت معهم متحدثاً طروباً. ولم تكن صحبته سارة لاترابه فحسب وانما كانت تجذب الشيوخ والشباب لان كاتو كان ذا خبرة واسعة وقد شارك قولا وفعلا في كثير من الشؤون . وكان ينظر الى مائدة الطعام على انها خير مكان لاكتساب الاصدقاء ؛ وكان الثناء على المواطنين الفاضلين موضوعاً شائعاً في مآدبه. اما المواطنون الآثمون عديمو النفع فكان نصيبهم الاهمال ، لان كاتو لم يكن ليأذن ان يذكر هؤلاء في مجلسه بخير او بشر .

المجد الحقيقي

« بعد مقتل يوليوس قيصر وانكسار الذين قتلوه استأثر انطونيوس بالحكم وبسط سلطانه على الرومان فأعلن شيشرون معارضته وألقى سلسلة من الخطب في انتقاد سياسة انطونيوس عرفت بالخطب الفيليبية اشارة الى خطب ديموستين المشهورة ضد الملك فيليب . وهذه قطعة من الخطبة الفيليبية الاولى يخاطب فيها شيشرون انطونيوس يوم كان انطونيوس قنصلاً مستبداً في روما وشيشرون حراً من احرار مجلس الشيوخ . »

•

اخشى ان تجهل طريق المجد الحقيقي فتحسب المجد في ان تكون اقوى من اخوانك المواطنين جميعاً ، وفي ان تكون مصدر خوفهم وهلعهم . اذا كانت هذه فكرتك فانك تخطىء الطريق المؤدي الى المجد .

الامر المجيد حقاً هو ان تكون مواطناً محبوباً من المواطنين ، وان تستحق شكر الدولة ، وان تكسب ثناء من حولك وتقديرهم وولاءهم الاكيد . اما ان تكون موضع خوفهم وبغضهم فذلك شيء بغيض يجب أن تستعيذ منه لانه دليل ضعف وانهيار وشيك .

وانا لنجد في الأدب المسرحي انه هلك من قال : « اني لا اخشى حقدهم اذا ظفرت بخوفهم . »

ليتك تذكر جدك يا انطونيوس . . هل تظن انه كان يشتري الخلود بثمن الخوف ، لأنه أعطي حرساً خاصاً ؟ كانت الحياة وكانت السعادة في

نظره ان يكون متساوياً مع اخوانه المواطنين في الحرية ، متقدما عليهم جميعاً في الكرامة .

لا يسعد امرؤ يعيش في احـــوال تجعل موته يذهب بـدون قصاص وتجلب الشرف الكبير لقاتليه . لذلك ارجو ان تلتفت الى الماضي وتعتبر باسلافك وتسيّر سفينة الدولة بحيث يشعر اخوانك المواطنون بالسرور لانك ولدت ؛ اذ بدون ذلك لا يستطيع احد في العـالم ان يكون سعيداً او مجيداً او ممتازاً ..

تقدير الوطن

« هـــذه خاتمة الخطبة الفيليبية الرابعـــة عشرة ، والاخيرة ، التي القاها شيشرون ضد انطونيوس في مجلس الشيوخ ، يرثي فيهـا الذين قضوا في معركة (Mutina) منزلين الهزيمة بجيش انطونيوس . وحدث بعد ذلـك ان جمعَ انطونيوس كيده وحشد قواه وارسل بعض رجاله فاغتالوا شيشرون . لقد علم انطونيوس انه لن يخلص له الحكم المطلق ما دام شيشرون على قيد الحياة .. »

•

أفترحُ ايها السادة ان يقام ارفع صرح تذكاراً لجنود كتيبة « مارس » وللذين سقطوا وهم يقاتلون الى جانبهم . عظيمةٌ وراثعة تلك الخدمات التي قدمتها هذه الكتيبة للدولة. لقـــد كانت اولَ كتيبة خرجت على انطونيوس ، واحتلت ألبا ، وانضوت تحت لواء القيصر . وبتأثر خطاها اكتسبت الكتيبة الرابعة مجداً مماثلاً في الشجاعة وحسن البلاء . وانتصرت الكتيبة الرابعة دون اي خسارة . اما من كتيبة مارس فقد سقط البعض في ساحة النصر . يا لها ميتةً سعيدة تردّ فيها امانة الطبيعة في سبيل الوطن .

لكني اعتقد انكم ولدتم من اجل بلادكم واسمكم منحدر من مارس ، إله الحرب ، ومعنى ذلك ان الاله الذي أنشأ هـذه المدينة لتكون سيدة العالم ارسلكم لتكونوا لها حراساً ومنقذين . الموتُ في الهزيمة معيب ، اما في النصر فهو مجيد . وكأن مارس قد اصطفى لنفسه اشجع الفرسان في ميدان القتال . إن رجال العقوق الذين قتلتم سيلقون جزاء خيـانتهم في

ظلمات الجحيم ، اما انتم الذين لفظتم النفَس الأخير في سبيل النصر فقد ظفرتم بمقام كريم بين الأخيار . قصيرٌ هو العمر الذي تمنحه الطبيعة لنا ، لكن ذكر الحياة النبيلة لا يبلى . واذا لم يكن الذكر اطول من العمر فمن يبلغ به الجنون حد طلب المجد بالنصَب الناصب والأخطار ؟

لقد احسنت اليكم السماء فكنتم أشجع الجنود في حياتكم وها انتم الآن تُعدّون اقدس المحاربين . ان بسالتكم لا تُدفن أبداً ، ولن ينساها الجيل الحاضر ، ولن تغفل عن ذكرها الأعقاب ؛ لأن مجلس الشيوخ والشعب الروماني قد رفعوا لكم نصباً خالداً . لقد اشتهرت جيوش عديدة في حروب قرطاجنة وايطاليا وبلاد الغال ، لكن أحداً من تلك الجيوش لم يظفر بمثل هذا الشرف الكبير . وليته كان في مقدورنا ان نكرمكم فوق هذا التكريم ، لانكم قدمتم اعظم الخدمات . انتم الذين طردتم انطونيوس الهائج من هذه المدينة ، وانتم رددتموه على عقبيه إذ حاول الرجوع . لذلك سيصنع لذكركم الصنّاع أبهى نصب وأجمل صرح ، وسينقش عليه ما يشهد لبأسكم الخارق حتى آخر الدهر . ولن ينقطع أبداً ثناء كل من رأى صرحكم هذا او سمع به . وهكذا بعتم حياة زائلة واشتريتم بثمنها الخلود .

اما وان أفضل المواطنين وأشجعهم قد كُرّموا بهذا النصب التذكاري فلنعزِّ أهلهم الذين لن يجدوا خيراً من هذا العزاء : ألا وهو انهم أنجبوا للدولة أبناء كانوا الحصون لها وكانوا الحمى . أما الأبناء فعزاؤهم في رؤية أمثلة رائعة من البأس القديم في عائلاتهم ؛ وعزاء الزوجات ان أزواجهن الذين قضوا يستحقون أجمل الثناء وعلى مثلهم تُشقّ الجيوب ؛ وعزاء الأخوان في الأمل بان يكون تشابه الأجسام سارياً على الفضائل أيضاً .

ليت أنا نستطيع ، بالتعبير عن شعورنا وباتخاذ المقررات ، ان نكفكف دموع هؤلاء الأهل جميعاً . وليت ان بمقدور أي خطاب يوجه اليهم علانيةً ان يصرفهم عن النوح والغم الى الفرح والابتهاج . لأنه من بين أسباب الموت المختلفة التي تهدد حياة البشر كان أكرم الموت وأمجده

نصيب أصدقائهم . ولم يُترك رفاتهم في الفلاة ، ولم يُحرق بشعائر غير لائقة ، ولم ينثر في قبور متباعدة . ولكن شيّعتهم الدولة في مأتم عام ودفنتهم تحت صرح سيكون هيكل البأس في نظر الأجيال القادمة .

ان أعظم العزاء لأهل الشهداء ان يسجل هذا النصب بوقت واحد ، بأس أصدقائهم ، وتقدير الشعب الروماني ، ووفاء مجلس الشيوخ ، وذكرى حرب قاسية لو لم يستمت فيها الجنود لاضمحلّ اسم الشعب الروماني بخيانة ماركوس انطونيوس .

دعـــاء الملك

« صفحة من كتاب (الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية) ألفه بالموصل محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطِقْطَقى في آخر القرن السابع للهجرة . والملك في زماننا هذا هـو كل زعيم او رئيس او رجل عـــامّ قدمته مواهبه او ثقة مواطنيه او ظروف الحياة لشرف الخدمة العامة . فالزعامة والرئاسة والنفوذ ، كالملك والامارة امانة في عنق صاحبها يمارسها بين يدي الله ويُسأل عنها يوماً وينال اجرها من يقوم بحقها . »

●

ويجب للملك ان يعرف نعمة الله عليه بان اصطفاه لهـذه المرتبة العليّـة دون سايرِ الخلق وبان جعله يفزع منه كل واحد ولم يجعله يفزع من احد فلا يزال لها ذاكراً شاكراً فأما الذكر فلامتثال قوله تعالى : « واما بنعمة ربك فحدّث » ، واما الشكر فلطلب المزيد لقوله تعالى : « ولـئن شكرتم لأزيدنّـــكم . »

ويجب أن يكون بينه وبين ربه معاملة سرية لا يعلم بها إلا الله فتلك المعاملة تقي مصارع السوء . وهذه العبارة مقبولة عند جميع اصحاب الملل وعند الحكماء ايضاً هي مقبولة ويمكن تـــأويلها على هذا المطلوب بحسب اعتقـــادهم .

ويجب ان يكون له دعوات يناجي بها ربه وهي دعوات تليق بالملوك لا تصلح للعوام ولا بأس ان أُثبت في هذا الموضع فصلًا من الدعـــاء

الملكي وهذا ما اقترحته انا ولم اعلم ان احداً تنبه عليه .

فصل من الدعـــاء مختصر :

اللهم اني ابرأ اليك من حولي وقوتي والجأ الى حولك وقوتـــك ، احمدك على ان اوجدتني من العدم ، وفضلتني على كثير من الامم ، وجعلت في يدي زمام خلقك واستخلفتني على ارضك .

اللهم فخذ بيدي في المضايق ، واكشف لي وجوه الحقايق ، ووفقني لما تحب ، واعصمني من الزلل ، ولا تسلب عني ستر احسانك ، وقني مصارع السوء واكفني كيد الحساد ، وشماتة الاضداد والطف بي في ساير متصارفـــاتي ، واكنفني من جميع جهاتي .

الولاية تقرباً الى الله

«من رسالة (الحسبة) لابن تيميـــة المتوفى سنة ٧٢٨ هجرية »

●

.. أمر النبي أمتـه بتولية ولاة أمور عليهم ، وأمرَ ولاة الأمور ان يردوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكموا بين الناس ان يحكموا بالعدل ، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعـالى . ففي سُنن أبي داود عن ابي سعيد ان رسول الله قال : « اذا خرج ثلاثـــة في سفر فليؤمّروا احدهم . » وفي سننه عن أبي هريرة مثله ، وفي مسند الامـــام احمد عن عبدالله بن عمر ان النبي قال : « لا يحلّ لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا أحدهم . »

فاذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات ان يولى احدهم كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو اكثر من ذلك **ولهـــذا كانت الولاية لمن يتخذهـا ديناً يتقرّب به الى الله ويفعل فيها الواجب بحسب الامكان من أفضل الأعمال الصالحة** ، حتى قد روى الامام احمد في مسنده عن النبي انه قال : « ان أحب الخلق الى الله إمام عادل ، وأبغض الخلق الى الله إمام جائر . »

في اعتزال السياسة

« من رسالة عنوانها (روح الوطنية) كتبها اللورد بولنغبروك (Bolingbroke) من اقطاب الساسة الانكليز في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، يؤنب فيها احد النبلاء (اللورد ليتلتون Lyttelton) على ابتعاده عن ميادين الحياة العامة . »

•

خدمة بلادنا ليست وهماً وخيالا وانما هي واجب راهن محسوس . ان من يسلّم بالادلة على وجود اي واجب اخلاقي آخر مستمد من دستور الطبيعة البشرية او من صلاح الاشياء وعدم صلاحها ، مضطر الى الاعتراف بوجود هذا الواجب ، او يقع في تناقض سخيف .

وبعد ان يقبل المرء ذلك الواجب بتلك الادلة لا يصعب ان يُبيَّن له ان التزامه القيام بالواجب هو بالنسبة الى الوسائل والفرص المتاحة له ؛ وان لا شيء يعفيه من هذا الالتزام ما دام يملك تلك الوسائل والفرص وما دامت بلاده محتاجة الى خدماته . هـذه الالتزامات في مجال الخدمة العامة تصبح واجبات على بعض الاشخاص لمدى الحيـــاة . لا شك انها تصبح احيانا كذلك ؛ فهل يغدو هذا الاحتمال عذراً لنكرانها او التهرب منها ؟ بالعكس ، يجب ان يكون هذا باعثا على قبولها وعلى القيام بها ، مع اعظم الشكر لله تعالى الذي جعلنا قادرين على ان نلعب دوراً رفيعا فيه كل الخير للناس .

المواهب الممتازة والمكانة العالية بين ابناء جنسنا ، تراثاً كانت ام كسبا ، هي امتيازات نبيلة . فهل يتبرم من يملكها بالواجبات التي تمليها عليه ويزهد

في حياة يقضيها في انبل عمل تستطيعه طبيعة البشر ؟

اهناك مكانة ارفع او مجد يمكن ان يطمح اليه بشري اعظم من ان يكون طيلة حياتـه السندَ للحق ، الحائل دون فساد الحكم ، والحارس الامين على الحرية العامة ؟

اذا خسر امرؤ مثل هـذه المكانة بسبب حكومة مستبدة او بضياع الصحة او المواهب العقلية ، او بقوة الاحداث فانه ينحط بشكل يستدعي الشفقة ولا يجلب اللوم عليه ؛ اما ان نذلّ انفسنا وننحطّ بها وننحدر عن رضا ، وبالاختيار ، من اعلى الى ادنى مقام وربما الى اسفل مكان بين ابناء آدم ؛ اما ان نعدل عن سياسة النـــاس لسياسة الخيل وكلاب الصيد ، ونترك العناية بمملكةٍ حرصاً على قرية ، ونهجر مشهد الاعمال الكريمة والجهود العظيمة في الحيـاة العامة في سبيل لهوٍ زريّ او شغل وضيع ، فما ذلك يا سيدي النبيل ؟ افضّل ان تسميه انت على ان اقول انا .

هل يقـال بانه امر شاق ان يُطلب الى بعض الناس ان ينبذوا لذات الحياة ويصرفوا ايامهم في العمل كي يتمتع بالراحة آخرون ؟ ان قيل هـذا فهو قولٌ باطل . ان حياة مكرسة لخدمة بلادنا تتسع للمسرات ايضاً وما ينبغي لاي حياة ان تسيء استعمال المسرات . واللذات اقلهـا لا يتنافى مع نهوضنا الدائم بالواجب العـــام ، اما اعظمها فينتج عن اداء ذلك الواجب بالذات .

الوطنية والأحزاب

« من رسالة لأدموند بورك (Burke) كتبها سنة ١٧٧٠ تحت عنوان (Thoughts on The Present discontents) وبورك مفكر سياسي كبير ، ارلندي الاصل ، ساهم في الحياة العامة في انكلترا وكان من قادة حزب الاحرار في مجلس العموم ، وترك مؤلفات ورسائل وخطباً تعتبر كنزاً ثميناً من كنوز الحكمة السياسية . »

•

الزعم بان الحزب والشيعة والعصابة تعابير مترادفة انما هو رأي حرص على نشره في كل زمان سياسيون غير دستوريين . والسبب واضح . فالرجال عندما تربطهم الصلات الحزبية يتنادون بسهولة وسرعة لملاقاة الخطر وإحباط المؤامرات . ويستطيعون ان يستقصوا أمرها بالشورى العامة ويقاوموها بقوة متحدة . بينما اذا كانوا متفرقين بدون اتفاق او نظام فالتنادي عسير والشورى صعبة والمقاومة متعذرة .

واذا كان الرجال لا يعرف بعضهم مبادىء البعض الآخر ، واذا لم يكتشفوا مواهب زملائهم ولم يعتادوا بذل الجهود المشتركة ، ولم تجمعهم ثقة شخصية ولا صداقة ولا مصلحة مشتركة ، فانه من المستحيل ان يستطيعوا القيام بعمل عام مع الانسجام والمثابرة وقوة التأثير . اما في الحزب فان اقل الرجال شأناً حين يضاف الى وزن المجموع يكون له قيمة ويكون له أثر مفيد ؛ أما خارج الحزب فان أعظم المواهب لا تفيد الشأن العام . ان امرءاً خالياً من الغرور لا يقتنع بان جهوده الفردية ،

غير المدعومة وغير المنتظمة ، تستطيع ان تحبط المؤامرات الخفية وترد كيد المواطنين الطامحين . عندما يتوحد الأشرار يجب ان يأتلف الأخيار ، وإلا فانهم يسقطون واحداً بعد الآخر ، ويذهبون ضحية غير مأسوف عليها في كفاح هزيل .

لا يكفي فيمن كان ذا مكانة عالية في الدولة ان يُحسن القصد ويتوخى لبلاده الخير ؛ ولا يكفي انه بشخصه المفرد لم يأت عملاً منكراً وانما اقترع دائماً حسب ضميره ، وهاجم كل تدبير يسيء الى مصالح وطنه . هذا الشخص الضئيل الذي لا يضر ولا ينفع والذي ينطوي وجوده على اعتذار ، يقصر كثيرا عن غرض الواجب العام . ذلك الواجب يتطلب ويقضي ان يسود الحق لا ان يُعلَن فحسب وان يُشهّر الباطل ويزهق ايضاً . اذا ما فات الرجل العام ان يضع نفسه بحيث يؤدي واجبه بفعالية وتأثير فانه فوات يفسد عليه أداء الامانة التي في عنقه كما لو كان خائنا لتلك الامانة . ولا يُشرف انساناً ان يقال في تلخيص حياته انه كان رجلا عدلا ؛ لكنه عني بان يتصرف على وجه لا يمكن ان يأتي بنتيجة .

لا أستبعد ان يكون سلوك بعض الاحزاب قد زهد رجالا ذوي فضيلة واخلاق في كل صلة وارتباط حزبي . وأعترف بان الناس في مثل هذه المحالفات يكتسبون روحا ضيقة متعصبة ، وانهم معرضون لان يغرقوا فكرة الخير العام في هذه المصلحة الجزئية المحدودة . ولكن حيثما تجعل الفضيلة المركزَ الحرج أمراً ضروريا فعلينا ان نحترس من الشرور التي ترافقه ، لا ان نهرب من المركز نفسه .

اذا كان حصن قائما في منطقة موبوءة فان آمر الحامية مضطر الى الاعتناء بصحته ولكن يجب عليه الا يتخلى عن الحصن . كل مهنة ، ولا استثني مهنة الجندي المجيدة ولا مهنة الكاهن المقدسة ، كل مهنة عرضة لشرور خاصة بها ؛ لكن هذا لا ينهض حجة ضد سلوك تلك الطرق المختلفة

في الحياة ، وليست الشرور ذاتها محتمة على كل شخص في تلك المهن . ومن هذا القبيل الاحزاب في الحياة السياسية ، فانها ضرورية في الاصل للقيام بالواجب العام قياما حسنا ، ومعرضة لان تتحول الى شيع وعصابات .

الدول مؤلفة من عائلات ، والدول الحرة تتكون من عائلات واحزاب ايضاً . ويمكن ان نؤكد ان ميلنا الطبيعي وروابط الدم تنزع بالضرورة الى ان تجعل الرجال مواطنين غير صالحين ، كما ان الصلات الحزبية تضعف الروابط التي تشدنا الى وطننا .

لقد ذهب بعض المشترعين الى اعتبار الحياد في الحياة السياسية إجراما في حق الدولة . وقد يكون هذا مبالغة في مبدأ صحيح . لا شك ان خير الوطنيين في اعظم الدول قد امتدحوا امثال تلك الصلات ورقوها . وكان العمل المشترك من اجل الدولة سببا رئيسيا من اسباب الصداقة والوداد . ولا اعلم سببا آخر خليقا بان يؤلف صداقات ارسخ وأعز وأرضى واشرف واكثر فضلا .

وقد ذهب الرومان بعيدا بذلك المبدأ ، حتى ان الزمالة في الوظائف ، الناشئة عن صدفة لا عن اختيار ، كانت تولّد صلة تدوم ما دامت الحياة . وكانت تُدعى « قدراً محتوماً » ؛ وكان يُنظر اليها باحترام كثير . وكان يُعتبر قطع تلك العلائق المدنية دناءة ما بعدها دناءة . وكان الشعب كله موزعا على جمعيات سياسية يعمل الناس بواسطتها على دعم المصالح التي تعنيهم في الدولة . ولم يكن من الاجرام ان يسعى المرء كي يصل الى الحكم اولئك الذين يشاركونه الرأي والشعور . وكان ذلك الشعب الحكيم بعيدا عن الظن بان تلك الصلات لا تلزم ولا تفرض واجبات ، او ان المرء يستطيع ان يخرج منها لاي مصلحة طارئة ، دون ان يلحق به العار . وكانوا يعتقدون ان الشرف في العلاقات الخاصة هو الاساس المتين للامانة في الحياة العامة ، وان الصداقة ليست بالخطوة

اليسيرة في سبيل الوطنية ، وان الذي يُظهر في معاملات الحيـــاة العادية رعاية للآخرين جدير ان ينظر الى غير مصالحه الخاصة حين يتقدم للعمل في منصب عام .

الوطني في البرلمان

« مقالة لصموئيل جونسون (Samuel Johnson) النقادة الذي كان مهيمناً على الأوساط الأدبية في لندن عند انتصاف القرن الثامن عشر . »

•

الوطني هو الذي تخضع سيرته العامة لدافع واحد ، هو حب البلاد ؛ وهو الذي ، كعامل في البرلمان ، ينسى شخصه فلا يرجو ولا يخشى ، ولا يغضب ولا يرضى ، وانما يُرجع كل شيء للخير العام .

لا يستطيع احد الجزم بان من بين الخمسمائة عضو يمكن ، في هذا الجيل الفاسد ، ان توجد اكثرية فاضلة من هذا الطراز . ولكن لا خير في اليأس والقنوط . واليقظة والنشاط يصنعان غالباً اكثر مما يُنتظر .

لنأخذ الوطني أينما وجدناه ؛ ولكي لا نؤخذ بالظواهر الكاذبة لنميّز بين العلامات الأكيدة والعوارض التي قد تخدع ؛ فقد يتحلى إنسان بالمظهر الخارجي للوطنية دون ان تكون له صفاتها الجوهرية الأصلية ، كالنقود المزيفة لها التماع وينقصها الوزن ..

الوطني هو بالضرورة ، دائماً وأبداً ، محبّ للشعب . ولكن حتى هذه الصفة قد تخدعنا احياناً .

الشعب هو كتلة مشوشة غير متجانسة ، من الأغنياء والفقراء ، من العقلاء والأغبياء ، ومن الأخيار والأشرار . وقبل ان نطلق على رجل يتودد للشعب لقب وطني يجب ان نعلم اي قسم من الشعب يخاطب ذلك الرجل . من الأمثال السائرة ان الذي يخفي حقيقته قد يُعرف باكتشاف

رفقائه . فاذا حاول المرشح للوطنية ان ينشر الآراء الصحيحة بين الطبقات العليا ويضبط بتأثيرها امر الطبقات الدنيا ؛ واذا اشترك مع الحكماء والمعتدلين والفضلاء ، فان حبه للشعب يسجل حسنة له . أما اذا كان التفاته الأول الى المعسرين المستعدين دائماً للانفجار ؛ والى الضعفاء ، وهم بطبيعة الحال كثيرو الشك والارتياب ، والى الجهلاء الذين يسهل تضليلهم ؛ والى المتهتكين الذين لا أمل لهم إلا في ظروف السوء والفوضى ، فان حبه هذا للشعب لا يشرّفه كثيراً . .

الوطني الحقيقي لا يسرف في بذل الوعود ، ولا يتعهد بتقصير عمر المجالس أو إلغاء القوانين أو تغيير نظام التمثيل .. هو يعلم ان المستقبل ليس خاضعاً لسلطانه وان ليس كل الأزمنة ملائمة على السواء للتبديل والتغيير .

كما انه لا يعطي وعداً مبهماً غير محدود بان يتقيد بتعليمات الناخبين . انه يعرف العصبيات الحزبية والأهواء التي تعصف بها ويعرف أيضاً تقلب الجمهور ، فهو يبحث اول الأمر عن الطريقة التي يُستفتى بها ناخبوه . والتوجيهات الشعبية لا تكون عادةً من صنع العقلاء الحكماء وانما من صنع الهائجين الطائشين ؛ والاجتماعات التي تعقد لتوجيه النواب قلما يشهدها غير المتبطل والخليع ، والوطني الحقيقي لا يجهل ان العدد الأصغر من بين ناخبيه قد يكون القسم الأكثر صواباً كما هي الحال في أغلب الأحيان .

والوطني الحقيقي في المجلس يعتبر نفسه منتدباً ليتعهد الخير العام ، وليحمي ناخبيه مع سائر أبناء بلاده ، لا من أذى الغير فحسب ، ولكن من إيذاء أنفسهم أيضاً .

البيان الاميركي

« بهذا البيان اعلن ممثلو المستعمرات الاميركية الثلاث عشرة انفصالهم عن التاج البريطاني في ٤ تموز سنة ١٧٧٦ . وقد كتب مشروع البيان توماس جفرسن Thomas Jefferson وضمّنه مبادىء عامة وقواعد كلية جعلت البيان من الوثائق التاريخية الهامة . وكان جفرسن في طليعة الآباء الاميركيين الكبار الذين أسسوا الدولة الجديدة ، وهو صاحب فلسفة سياسية دعمت الديمقراطية الاميركية . وقد انتخب ، بعد واشنطون وآدامز ، لرئاسة الجمهورية مرتين . »

•

عندما يصبح ضرورياً ، في مجرى الحوادث البشرية ، ان يحل شعب ما الروابط السياسية التي كانت تجمعه مع شعب آخر ، ويحتل بين دول الارض المركز المتساوي المستقل الذي خوّله اياه قانون الطبيعة وطبيعة الله ، فان الاحترام اللائق لآراء الناس يقتضي ان يعلن هذا الشعب الاسباب التي دفعته الى الانفصال .

اننا نعدّ الحقائق التالية من البديهيات : ان الناس جميعاً خُلقوا متساوين وان خالقهم منحهم حقوقاً خاصة لا تُنتزع ؛ وان من تلك الحقوق الحياة ، والحرية ، وطلب السعادة ؛ وانه لصيانة تلك الحقوق انشئت الحكومات بين الناس ، مستمدةً سلطانها المشروع من رضا المحكومين وقبولهم ، وانه حينما تصبح حكومة من الحكومات خطراً على هذه الغايات فان من حق الشعب ان يبدلها او يلغيها ليقيم حكومة جديدة ترسخ قواعدها على

تلك المبادىء ، وتنظم سلطاتها على وجه يكفل للشعب السلامة والسعادة .

والحكمة تقضي الا تُغيّر حكومات قديمة العهد لاسباب ضعيفة عابرة ؛ وقد اظهرت التجارب ان الناس اكثر ميلاً الى احتمال المساوىء الممكن احتمالها منهم الى تصحيحها بالغاء المؤسسات المألوفة . ولكن عندما تكشف سلسلة طويلة من سوء الاستعمال والاغتصاب عن خطة مبيّتة لاخضاع الشعب ووضعه تحت حكم استبدادي مطلق فمن حق الشعب ، بل من واجبه ان يقلب تلك الحكومة ويلتمس ضمانات جديدة لسلامته المستقبلة . كذلك كانت المساوىء التي قاستها هذه المستعمرات بصبر ، وتلك هي الضرورة القصوى التي تضطرها الى تبديل نظم الحكم السابقة ...

(ويلي ذلك تعداد مساوىء الحكم البريطاني في المستعمرات الاميركية)

وعليه فنحن ممثلي الولايات المتحدة الاميركية ، المجتمعين في مؤتمر عام مستشهدين بالحاكم الاعلى على عدالة قضيتنا ، نعلن باسم الشعب الصالح وسلطانه ، ان هذه المستعمرات اصبحت دولاً حرة مستقلة كما يحق لها ان تكون ، وانها في حِلّ من اي ولاء سابق للتاج البريطاني ، وان كل رابطة سياسية بينها وبين دولة بريطانيا العظمى قد انحلت بالكلية كما ينبغي ان تنحلّ ؛ وان لها ، كدول حرة مستقلة ، السلطة الكاملة لاعلان الحرب ، وإقرار الصلح ، وعقد المعاهدات ، وانشاء التجارات ، والقيام بسائر الاعمال التي تمارسها الدول المستقلة بحق صريح . ولدعم هذا التصريح فانا ، بالاتكال على العناية الالهية ، يتعهد بعضنا للبعض الآخر بارواحنا واموالنا وشرفنا المقدس .

العقد الاجتماعي

« من كتاب عن الثورة الافرنسية الفه ادموند بورك (Burke) سنة ١٧٩٠ »

●

لا شك ان الاجتماع الانساني عقدٌ واتفاق . وان عقوداً ثانوية ذات اغراض طارئة يمكن ان تلغى حسب الهوى ؛ ولكن لا يجوز ان يُنظر الى الدولة على انها ليست افضل من عقد مشاركة في تجارة فلفل او بنّ او تبغ او اي مشروع وضيع يبدأ لاجل مصلحة يسيرة عابرة ويلغى على هوى الشركاء . يجب ان يُنظر الى الدولة باحترام آخر ، لأنها ليست شركة في امور خاضعة لوجود حيواني غليظ ذي طبيعة وقتية زائلة . انها شركة في كل علم ؛ شركة في كل فن ؛ شركة في كل فضيلة وفي جملة الكمال . وبما ان اغراض شركة كهذه لا يمكن ان تتحقق في عدة اجيال ، فأنها تصبح شركة ، لا بين الاحياء فحسب ، ولكن بين الاحياء وبين الاموات وبين اقوام لم يولدوا بعد . وايّ عقد في اية دولة كانت ان هو إلا بندٌ في العقد الاصلي العظيم للاجتماع الخالد ، عقد يربط الطبيعة الدنيا بالطبيعة العليا ، ويصل العالم المنظور بغير المنظور وفق نظام سماوي ثابت يحفظ عالم الطبيعة وعالم الروح جميعاً ، كلاً في مكانه المرسوم .

الانصراف من الخدمة العامة

« بعد ان قاد جورج واشنطون الجيش الاميركي المظفر في الحرب التحريرية انتخب اول رئيس للجمهورية الاميركية الجديدة ، ثم اعيد انتخابه وهو راغب في الاعتزال . واراد مواطنوه ان يرشحوه مرة ثالثة فأبى وودعهم بهذا الخطاب الذي القاه في ١٩ ايلول سنة ١٧٩٦ واعلن فيه انهاء حياته السياسية . »

•

اصدقائي واخواني المواطنين ،

إن ميعاد انتخاب احد المواطنين ليتسلم السلطة التنفيذية في حكومة الولايات المتحدة لم يعد بعيداً ، وقد حان الوقت لتنصرف اذهانكم الى اختيار الشخص الذي تلقى اليه تلك الوديعة الهامة ، لذلك يبدو لي من المناسب ، لا سيما وان ذلك قد يؤدي الى تعبير اوضح عن الرأي العام ، أن اطلعكم على القرار الذي اتخذته وهو الاعتذار عن اعتباري بين اولئك الذين سيقع على احدهم الخيار .

وأرجوكم ، في الوقت ذاته ، ان تنصفوني فتتأكدوا ان ذلك القرار لم يُتخذ إلا مع النظر الدقيق الى جميع الاعتبارات الخاصة بالعلاقة التي تربط بين المواطن الامين وبين وطنه ، ولست احجم عن «عرض الخدمة» الذي قد يوحيه صمت من كان في منزلتي ، عن تضاؤل في غيرتي على مصلحتكم المستقبلة ، او عن قصور في الاحترام لكم والتقدير لفضلكم السابق ، وانما يدفعني الى ذلك اقتناعي التام بان تلك الخطوة منسجمة مع الامرين.

ن قبول الوظيفة التي دعاني اليها اقتراعكم مرتين ، والاستمرار فيها، كانا بتضحية الميل والهوى لفكرة الواجب وامتثالاً لظاهر رغبتكم . وكنت آمل دائماً أن يكون في مقدوري أن ارجع من زمن بعيد الى العزلة التي انتزعتُ منها على تمنّع مني وإحجام ، وان يكون ذلك مؤتلفاً مع دوافع لم اكن حراً في اهمالها . حتى ان شدة ميلي الى الاعتزال ، قبل الانتخاب الاخير ، حملتني على تحضير خطاب اعلنُ لكم فيه ذلك ، لكن اعادة النظر والدراسة الناضجة للحالة المرتبكة الخطيرة التي وجدت فيها علاقاتنا مع الدول الاجنبية آنذاك ، والنصح الذي اسداه اشخاص يتمتعون بثقتي، اضطرني الى ان اعدل عن الفكرة .

ويسرني أن حالة شئونكم الخارجية والداخلية لا تجعل اتّباع الميل بعد الآن غير متلائم مع الشعور بالواجب واللياقة ؛ واني مقتنع انكم في ظروف وطننا الحاضرة ، لا تستنكرون تصميمي على الاعتزال ، مهما كان حسن ظنكم بخدماتي السابقة .

الانطباعات التي رافقتني اول ما تعهدتُ الامانة الشاقة قد شُرحت في الوقت المناسب . وفي القيام بتلك الامانة لا اقول اكثر من اني ، مع النية الحسنة ، قد بذلت في سبيل تنظيم الدولة وادارتها خير جهود يستطيعها فكر غير معصوم عن الخطأ .

ومع اني لم اكن اجهل منذ البدء ضعف مؤهلاتي ، فان الاختبار في نظري ، وربما كان اكثر في نظر الآخرين ، قد قوّى دوافع الاحجام ، وثقلُ السنين المتزايد كل يوم ينذرني ويلح في الانذار ، بحيث ان ظلال العزلة اصبحت ضرورية لي بقدر ما هي سارة .

وقناعتي أنه إذا كانت بعض الظروف قد اعطت قيمة خاصة لخدماتي فقد كانت موقتة عابرة ؛ وبينما يدعوني الخيار والتبصر الى ترك الميدان السياسي اجد العزاء في الاعتقاد بان الوطنية لا تحرّم عليّ ذلك .

واذ اتطلع الى اللحظة المنتظرة لانهاء حياتي العامة فان عواطفي لا

تسمح لي ان ارجيء الاعتراف بالجميل وان اشكر لبلادي الحبيبة المجد الذي انعمت به عليّ والثقة الثابتة التي دعمتني بها ، والفرص الكثيرة التي سنحت لاظهر ولائي الأكيد بخدمات صادقة ومستمرة ، وان لم تكن معادلة في النفع لغيرتي .

وإذا كانت قد حصلت فوائد لبلادنا من هذه الخدمات ، فليُذكر دائماً لمجدكم ، وكمثال هادٍ في تاريخنا ، انه في ظروف كانت فيها العواطف والاهواء المتضاربة معرضة لان تُفسد علينا رأينا ، وفي وسط مظاهر مريبة في بعض الاحيان ، وتقلبات في الحظوظ مثبطة للهمم في اكثر الاحيان ، وفي احوال كثيراً ما شجع فقدان النصير فيها روح الانتقاد ، فان ثباتكم واستمرار تأييدكم كانا الدعامة الاساسية للجهود المبذولة وكانا ضمانة للخطط التي اثمرت بها تلك الجهود .

اني متأثر تأثراً عميقاً بهذه الفكرة وسأحملها معي الى القبر لتحثني حثاً قوياً على ان اتوجه بصلوات لا تنقطع بان تديم السماء إحسانها وتمطركم باجود خيراتها ، وان يبقى الى الابد اتحادكم وحبكم الاخوي ، وان يحافظ على حرمة دستور هو من صنع ايديكم ؛ وان يحمل تطبيقه في كل ميدان طابع الحكمة والفضيلة ؛ واخيراً ، ان تصبح سعادة شعب هذه الولايات ، تحت ظلال الحرية ، كاملة بالحفاظ الشديد والرأي السديد في استعمال هذه النعمة ، بحيث تكسب لهم شرفاً كبيراً ناجماً عن اعجاب كل امة محرومة وعن حبها ورغبتها في الاقتداء.

لعلي يجب ان اقف عند هذا الحد ، لكن اهتماماً بخيركم لا يمكن ان ينتهي إلا مع حياتي ، وخشيةَ الخطر التي ترافق ذلك الاهتمام ، تدفعني ، في مناسبة كهذه ، إلى ان اعرض لتفكيركم الرزين وأنهي الى نظركم المعاد بعض آراء هي نتيجة تأمل كثير ، وملاحظة غير طفيفة ، تبدو لي بالغة الأهمية لدوام هنائكم كشعب ، وتقدم لكم هذه الآراء بمزيد من الحرية لأنكم لن تجدوا فيها غير تنبيهات نزيهة صادرة عن صديق مفارق لا يمكن أن يكون له دافع شخصي يكدّر نصحه . ولست انسى ، كمشجع لي ،

حسن قبولكم لآرائي في مناسبة سابقة شبيهة بهذه المناسبة .

(**حب الحرية**) : بما ان حب الحرية قد حِيكَ مع كل نسيج من انسجة قلوبكم فلا لزوم لتوصيةٍ مني في سبيل تقوية حبكم لها ودعم الوداد .

(**الاتحاد الاميركي**) : ووحدة الدولة التي تجعلكم شعباً واحداً هي الاخرى عزيزة عليكم الآن . وهي بحق كذلك ؛ لأنها عماد رئيسي في صرح استقلالكم الحقيقي ، ودعامة لأمنكم في الداخل ، والسلام في الخارج ، وسلامتكم ، ورخائكم ، والحرية التي تقدّرون هذا التقدير العالي . ولكن من السهل ان يرى المرء بانه ستُبذل جهود كثيرة وتستخدم وسائل عديدة ، لاسباب مختلفة ومن جهات شتى ، لتضعف في اذهانكم الاعتقاد بهذه الحقيقة ؛ وهذا هو الموضع في معقلكم الوطني الذي ستستهدفه مدفعية الاعداء في الداخل والخارج باستمرار ونشاط (خفيةً وخداعاً في اكثر الاحيان) . لذلك كان من الاهمية القصوى ان تقدروا تقديراً حسناً القيمة العظيمة الكامنة في الوحدة القومية لسعادتكم كجماعة وافراد ؛ وان تحبوا وحدتكم هذه حباً خالصاً معتاداً لا يتزعزع ، وان تعوّدوا انفسكم ان تفكروا فيها وتتحدثوا عنها كحصن حصين لسلامتكم وهنائكم ، وان تسهروا على حفظها بغيرة واهتمام ؛ مُسقطين من حسابكم كل ما من شأنه ان يدعو الى مجرد الظن بان التخلي عنها ممكن في حال من الاحوال ؛ وان تصبّوا غضبكم على اول بادرة تكشف عن محاولة لفصل اي جزء من بلادنا عن بقية الاجزاء او لاضعاف الروابط المقدسة التي تصل ما بين الاجزاء المختلفة .

لهذا يدعوكم كل مرغّب من عاطفة او مصلحة . وبما انكم مواطنون ، بالولادة او الاختيار ، في وطن مشترك فان لذلك الوطن حقاً في ان تجتمع حوله عواطفكم . إن اسم « اميركا » الذي يخصكم بصفتكم القومية يجب ان يثير عزةَ وطنيتكم المشروعة اكثر من اي تسمية اخرى صادرة عن تمييزات اقليمية . وان لكم نفس الدين والآداب والعادات والمباديء

السياسية مع ظلال يسيرة من الاختلاف . وقد حاربتم في قضية مشتركة وانتصرتم معاً ؛ والاستقلال والحرية اللذان تملكون هما نتيجة شورى عامة وجهود متضافرة واخطار مشتركة وآلام وانتصارات .

[ويلي ذلك المزايا المادية للاتحاد]

(**الاقليمية**) : وعند النظر في الاسباب التي قد تعكر الاتحاد يخطر على البال أمر يستدعي الاهتمام الجدي وهو ان يكون قد وُجد سبب لاتصاف الاحزاب بالفروق الاقليمية ، فحزب شمالي وآخر جنوبي ، وثالث اطلسي ورابع غربي ؛ من حيث يستطيع اصحاب المكر والغرض ان يوحوا بان هناك فرقاً حقيقياً في المصالح الاقليمية وفي وجهات النظر . ان من وسائل الحزبية لاكتساب السلطة والنفوذ ، ضمنَ مقاطعة معينة ، ان تشوّه آراء المقاطعات الاخرى واهدافها . وانكم لا تفرطون مهما بالغتم في تحصين انفسكم ضد الحسد وحزازات النفوس التي تنشأ عن ذلك التحريف والتشويه ؛ انها تفضي الى ان يعتبر بعضهم بعضا غرباء اولئك الذين يجب ان يرتبطوا بعاطفة الأخاء .

(**الاتحاد الاميركي**) : من اجل فعالية اتحادكم وبقائه فان حكومة شاملة ضرورة لا بد منها . ولا تستطيع المحالفات بين الولايات مهما كانت وثيقة ، ان تحلّ محلها ، اذ لا مفر لها من النقض والتوقف وما تتعرض له كل المحالفات في جميع الازمان . ان شعوركم بهذه الحقيقة الخطيرة قد دفعكم الى ان تُدخلوا التحسين على محاولتكم الاولى باقرار دستور هو اقرب الى الاتحاد الوثيق من دستوركم السابق ، وادعى الى تدبير شئونكم العامة تدبيرا فعالا . هذه الدولة ، وليدة اختباركم ، غير متأثرة بغيرها ولا هيابة ، انشئت بعد البحث الوافي والمذاكرة الناضجة ، كاملة الحرية في مبادئها ، وفي توزيع سلطاتها ، جامعةً بين السلامة والنشاط ، ومشتملة على نص لتعديل دستورها ، هذه الدولة تستحق ثقتكم وتأييدكم . ان احترام سلطتها ، والانقياد لقوانينها ، والاذعان لتدابيرها انما هي واجبات

تفرضها القواعد الاساسية للحرية الحقيقية . ان اساس انظمتنا السياسية هو حق الشعب في وضع الدساتير وفي تعديلها ، لكن الدستور القائم في اي وقت كان ، له حرمة وقدسية وهو ملزم للجميع حتى يتغير بفعل واضح رسمي ، صادر عن مجموع الشعب . ان فكرة سيادة الشعب بحد ذاتها وحق الشعب في انشاء الدولة يفترضان واجب كل فرد في اطاعة الدولة القائمة .

وكل ما يعرقل تنفيذ القوانين ، وكل جمعية او شركة ، مهما كان طابعها الغرار ، تستهدف التأثير على الشورى المنتظمة وعمل السلطات القائمة ، او تتحكم فيها ، او تقاومها او تهددها ، فانها تهدم هذا المبدأ الاساسي وتسير في اتجاه مميت . انها تؤدي الى تأسيس الشيع ، واعطائها قوة استثنائية مصطنعة ؛ وتضع ، مكان ارادة الامة المفوّضة ، ارادة شيعة صغيرة في اغلب الاحيان ، لكنها قلة مكارة مغامرة ؛ وتجعل الادارة العامة ، بتداول الاحزاب المختلفة ، مرآة مشاريع مرتجلة متنافرة متناقضة ، لا وسائل تنفيذ خطط صحيحة متناسقة ، انضجتها الابحاث المشتركة وكيّفتها المصالح المتبادلة .

(الروح الحزبية) : تحدثت اليكم فيما تقدم عن خطر الاحزاب في الدولة ، مع الاشارة الخاصة الى انشاء الاحزاب على اساس الفروق الجغرافية . والآن دعوني القي نظرة شاملة واحذركم من الروح الحزبية وآثارها المؤذية بصورة عامة .

هذه الروح ، مع الاسف ، لا يمكن فصلها عن طبيعتنا ، لأن لها جذوراً في اقوى انفعالات العقل البشري . وتوجد باشكال مختلفة في كل الحكومات ، مكظومةً شيئاً ، مضبوطةً او مكبوتة ، لكنها في الحكومات الشعبية تبدو في اعظم حدتها وغزارتها وهي بحق شرّ اعداء تلك الحكومات . وانّ تعاقب شيعة بعد اخرى على الحكم ، وشحذ روح الانتقام ، الملازم بالطبيعة للاختلافات الحزبية التي اقترفت في عصور مختلفة وبلاد مختلفة اقبح الكبائر والفواحش ، هو نفسه حكومة استبدادية مخيفة . لكنه يؤدي مع

الزمن الى حكومة استبدادية دائمة اصولية . والبؤس والاضطرابات التي تحصل شيئا فشيئا تميل بعقول الناس الى التماس السلامة والراحة في سلطان فرد مطلق ، ويتقدم عاجلا او آجلا زعيم شيعة مسيطرة ، اوفر حظا أو اكثر كفاءة من منافسيه ، ويستغل هذا الوضع لاغراض ارتقائه هو ، على انقاض الحرية العامة .

وبدون ان نتطلع الى حالة متطرفة من هذا النوع (مع انها يجب ان لا تسقط من حسابنا) فان اضرار الروح الحزبية الشائعة والمستمرة ، تكفي لان تجعل من مصلحة شعب رشيد ومن واجبه ان يخمد الروح الحزبية ويردعها .

انها تلهي وتحير مجالس الشورى وتضعف الادارة العامة . انها تزعزع المجتمع بما تشيع فيه من حسد وبغضاء ومخاوف مصطنعة ؛ وتذكي نار العداوة بين الاحزاب ، وتثير بين الحين والآخر الشغب والعصيان ، وتفتح الابواب للنفوذ الاجنبي والفساد الذي يجد طريقه الى الحكم نفسه معبدة بواسطة الاهواء الحزبية . وهكذا تخضع سياسة دولة وإرادتها لسياسة وإرادة دولة اخرى .

هناك قول بان الاحزاب في البلاد الحرة هي ضوابط نافعة لادارة الدولة وانها تساعد على ابقاء روح الحرية حية في البلاد . وهذا صحيح في الغالب ضمن حدود معينة ، وفي حكومات ملكية تستطيع الوطنية ان تنظر بتساهل وتسامح ، ان لم يكن بتشجيع ، الى الروح الحزبية ؛ ولكنها روح لا ينبغي ان تشجع في الحكومات ذات الطابع الشعبي وفي النظم الانتخابية .

ومن المؤكد ، بالاستناد الى النزعة الطبيعية ، انه سيوجد دائما ما يكفي من هذه الروح لكل غرض نافع . وبما ان هناك خطراً دائما من الافراط والغلو فان الجهد يجب ان ينصرف ، بقوة الرأي العام ، الى التلطيف منها وتخفيفها . اذا لم يكن لهذه النار ان تطفأ فانها تتطلب يقظة مطردة لكي

تمنع اندفاع اللهيب فتحرق بدلا من ان تضيء .

حافظوا على العهد وراعوا العدالة في علاقاتكم مع الامم ، وتعهّدوا السلام والانسجام مع الجميع . الدين والاخلاق يفرضان عليكم هذا النهج . وحسن السياسة ، ألا يفرض النهج نفسه ؟ انه جدير بامة حرة متنورة ، وعظيمة في مستقبل غير بعيد ، ان تقدم للبشر مثالا كريما نادرا عن شعب يعمل بهدي عدالة رفيعة وسماح . من يشك في ان ثمرات خطة كهذه ، ستعوض بغزارة عن اي مزايا موقتة نخسرهـا بمثابرتنا على تلك الخطة ؟ أمن المعقول الا تكون العناية قد ربطت هناء الامة الدائم بفضيلتها ؟ هذه التجربة ، على اقل تعديل ، يشير بها كل شعور يشرف طبيعة الانسان . ام ان ذلك مستحيل بسبب نقائص تلك الطبيعة .

وفي تطبيق خطة كهـذه لا شيء اهم من أن يُستبعد العداء الدائم المتأصل ضد امم معينة ، والتعلق العاطفي بامم اخرى ، وان يقوم مقام هذين شعور عادل وسلمي نحو الجميع . الشعب الذي يضمر لشعب آخر بغضاً معتاداً او حباً معتاداً هو عبد الى حد ما . هو عبد لحقده او لودّه وكلاهما كاف ليصرفه عن واجبه وعن قصده .

يا ابناء وطني ؛ اني إذ اقدّم لكم نصائح صديق محب قديم ، لا انتظر ان تترك نصائحي انطباعاً قوياً باقياً اثناه ؛ وانها ستضبط تيار الاهواء المعتاد او تجنب امتنا مسلكاً جرت فيه مصائر الامم ؛ ولكن ، إذا جاز لي ان امنّي نفسي ، بان تكون هذه النصائح نافعة بعض النفع ؛ وان تخطر على البـال من وقت لآخر لتلطف من احتدام الروح الحزبية ، ولتحذر من كيد الاجنبي ، وتحمي من ادعاءات الوطنية الكاذبة فان هذا الأمل سيكون مكافأة تامة لي على اهتمامي بخيركم ، ذلك الاهتمام الذي أملى تلك النصائح .

الى اي حد عملت بهدي المبادىء التي صورتها لكم في القيام بواجباتي الرسمية ؟ السجلات العامة وغيرها من الادلة والبينات ستشهد امامكم

وللعالم . اما بالنسبة اليّ فضميري مرتاح الى اني اعتقدت ، على اقل تعديل ، باني فعلت ذلك .

(**الخاتمـــة**) : ورغم اني ، عند استعراض احداث ولايتي ، لا اجد خطأ مقصوداً ، فان شعوري بنقائصي يدفعني الى الظن بانه من المرجح ان اكون قد ارتكبت اخطاء كثيرة . ومهما كانت تلك الاخطـــاء فاني اتضرع الى الله ان يبعد شرها عنكم واسأله اللطف في آثارها . وسأحمل في صدري الأمل بان بلادي ستنظر دائماً الى اخطائي بتسامح وإغضاء، وان الاخطاء الناجمة عن قصور الكفاءات ، بعد خمس واربعين سنة من حيـاة مكرسة لخدمتها باستقامة وحمية ، ستودع للنسيان ، كما ينبغي ان أودع انا اخيراً في دار القرار .

اني معتمد على احسان وطني في هذا الشأن وسائر الشئون ، يحركني حبّ متوقد لها ، حبّ ملازم لطبيعة رجل يرى في وطنه ارضه وارض اجداده لعدة اجيال ، واتطلع بعين الرجاء الى عزلة اعدُ نفسي ان احقق فيها الاستمتاع بين اخواني المواطنين بالقوانين الفاضلة واثرها الحميد في ظل حكومة حرة هي موضع حبي الدائم ، وهي الجزاء الحسن ، على ما اعتقد، لهمومنا المشتركة والجهود والاخطار .

ركوب الخطر

« من رسالة كتبها ادموند بورك سنة ١٧٩٦ ينتقد فيها سياسة رئيس الوزراء وليام بت (William Pitt) في السلم والحرب مع حكومات الثورة الفرنسية »

•

لأي غرض رجعت بالذكرى معكم الى اواخر القرن الماضي ؟

فعلت ذلك لأريكم ان الامة البريطانية كانت يومئذ شعباً عظيماً ، ولأظهر لكم كيف ارتفعت فوق مستوى الابتذال فنتعلم الوسائل ونستأنف زعامة الجنس البشري .

لقد اكتسبنا تلك الرفعة بهمة عالية كانت لنا يومذاك وجلد وثبات . لم يكن بريق العاطفة ليدفعنا يومئذ او وميض الهوى ، وانما الهمنا ما كان حاراً وباقياً معاً وما وافق مصالحنا العظيمة المعرضة للخطر ، تلك قوة اخلاق انعمت علينا بها السماء . والدولة كانت الدافع الحيوي والمحرك الفعّال .

ان استطاع البحر ان يعلو بنفسه ويهيج ، ان امكن الموج العظيم ان يتحدى الشاطيء العنيد بدون رياح ، فقد يستطيع جمهور الشعب البليد ان يتحرك ويتسامى ويستمرّ في اتجاه دائم نحو غاية واحدة دون عقل جبار يقوده او سلطان عظيم .

هذا الدافع كان يجب ان يتاح في حربنا هذه . وكان يجب ان يستمر الدفع في كل لحظة . فقد أبدعت الحرب ، ان كانت الحرب ابدعت اصلاً ، لتلمس جميع ينابيع العمل العظيمة في صدر الانسان . وما كان ينبغي ان تكون حرب اعتذار . وكان الوزير في هذا النزاع ان يفاخر بالنصر ،

وان يتعزى في البلاء ، وان يتمسك بمبادئه على كل حال . وإذا لم يُقدَّر للوزير ان يدعم الصرح المتداعي فيجب ان يدفن نفسه تحت انقاض العالم المتمدن . ان فن اليونان باسره وكبرياء ملوك الشرق وكل سلطانهم لم ترفع فوق رمسهم صرحاً اعظم من ذاك الصرح .

مضت ايام كان فيها عقل الوزير الكبير في مستوى الازمة العالمية التي دعي لمعالجتها . وكانت بلاغته الشهمة مساوية لحكمة تلك الفكرة النبيلة . لكن الحقير انتصر على الخطير انتصارا غير طبيعي (كما قد يبدو) لا انتصاراً غير مألوف .

اني متأكد انكم لم تنسوا باي قلق واضطراب سمعنا قول غير واحد من النبلاء عند بدء النزاع : « انه مستعد ان يجرب الحرب سنة او سنتين فاذا لم تنجح جنحَ للسلم . » كأنّ الحرب موضوع قابلٌ للتجربة ! وكأنكم تستطيعون ان تأخذوا الحرب او تدعوها كلعبٍ تافه ولهو عقيم . أو كأن الآلهة المريعة التي تشرف على الحرب ، والرمح الفتاك في يدها ، والغول المخيف على صدرها ، كأنّ هذه الآلهة ذات غنج ودلال تجوز مغازلتها . يجب ان نقترب برهبة وخشوع من تلك الآلهة الجبارة التي تحبّ الشجاعة وتوصي باعمال الرأي . فالحرب لا تترك امة حيث وجدتها . ولا يجوز ان نخاض غمارها قبل المذاكرة ونضج الفكر . لا اقصد مذاكرة تطول وتنتهي بالتردد المشكل ، وانما اعني نقاشاً يؤدي الى الحكم الثابت وحزم الامور .

واذا رُكبت الحرب بعد ذلك فما ينبغي ان تترك دون سبب وجيه محقق مدروس كالسبب الذي دعا الى ركوبها . فقد يُصنع السلم بدون تعقل وتروٍّ كما تصنع الحرب . ولا شيء اكثر حماقة وطيشا من الخوف . ومشورة الجبن قلما تؤجل شراً نهرب منه ، ولكنها تزيد في استفحال الشرّ على الدوام .

في الحرب العظمى التي اثرناها ضد الملك لويس الرابع عشر ما يقارب

ثمانية عشر عاما ، لم تدخر الحكومة وسعا لتؤكد للشعب انهم وان كانوا يطمعون في المجد ، فان المجد لم يكن الغرض الاخير . وانما كان كل ما عزّ عندهم من دين وقانون وحرية وكل ما وعت قلوبهم كأحرار ، كبريطانيين ، كمواطنين في الامبراطورية المسيحية الكبرى كان كل ذلك في مهب الريح . لقد عرفوا فن اكتساب عطف الشعب العظيم وفهموا الطبيعة البشرية ايضاً .

خطرٌ يجتنبنا الحطر — تعب حاضر وآلام تصرف عنا مستقبلاً قاتماً وكارثة ادهى — هذه غرائز حيوان مغامر بطبيعته ومحتاط ، حذر وجريء ، صنعه الخالق ، كما قال الشاعر ، من حديث واسع ينظر الى ما قبل وما بعد . ولن تستطيع حرب الحساب والتخمين ان تذكي في نفوس الشعب روح العزم المتوقد والحزم الاكيد . وليس فيها ما يحفظ العقل سليماً عند احتدام الشدائد . حتى انك حيث تلقى الناس مستعدين ليبيعوا دماءهم بالمال ويجازفوا بسلامتهم اشباعاً للطمع ، فان الرغبة التي تدفعهم الى مثل هذا النضال يجب ، ككل الرغائب البلهاء ، ان ترى اهدافها واضحة ، قريبة المنال ، فشهوات العامة جائعة لا تعرف الصبر ، والغزو المرجوّ والنهب المنتظر ، والغنيمة المستقبلة ، المؤجلة البعيدة المنال ، والاسلاب التي ينبغي ان تغني اجيالاً لاحقة والتي قد لا تصل الى تلك الاجيال ابداً ... هذه كلها لن تدعم حرباً مأجورة . الشعبُ على حق . وحساب الربح في مثل هذه الحروب امل كاذب ، وفي تعادل ميزان حرب كهذه يُشرى عشرة آلاف كيس من السكر بعشرة آلاف ضعف الثمن .

دم الانسان ينبغي الاّ يراق إلا ليفدي دم الانسان . والدماء تراق كريمة من اجل اهلنا واصدقائنا ، من اجل إلهنا ، وفي سبيل بلادنا والانسانية جمعاء . كل ما عدا ذلك باطل ، كل ما عداه حرام .

الانتساب الى شعب عظيم

« من حديث لنابغة الأدب الالماني چوتـــه (Goethe)
في سنة ١٨١٣ »

●

لا تحسبوا اني غير مبالٍ بالفِكر الكبيرة ـ الحرية ، الوطن ، الشعب . كلا ؛ ان هذه الفِكر في دمنا ؛ إنها تؤلف جزءاً من كياننا لا يستطيع احد ان ينبـــذه .

المانيا عزيزة على قلبي . وكم شعرت بالألم المرير عند التفكير بان الشعب الالماني ، وافرادُه على مـا هم من الفضل ، تعيس كمجموع . ان المقارنة بين الشعب الالماني والشعوب الاخرى تثير فيّ شعوراً أليماً احاول ان اتهرب منه باي طريقة ممكنة ؛ وفي العلم والفن وجدت لنفسي مخرجاً لأن العلوم والفنون ملك العالم الواسع ، وامامها تختفي حدود الجنسيات . وليس هذا سوى عزاء سقيم ، وما هو بتعويض كريم عن اعتقاد الرجل الأبيّ بانه ينتمي الى شعب عظيم ، قويّ ، مجيد ، يرهب الاعداء .

الانسانية والوطن

« فصل من كتاب (واجبات الانسان) الذي الفه جوزيف مازيني (Mazzini) رسول الوحدة الايطالية ، سنة ١٨٥٨ وخاطب فيه عمال ايطاليا . »

•

واجباتكم الاولى – الاولى من حيث الاهمية – هي ، كما قدمت لكم ، نحو الانسانية . فانتم ناسٌ قبل ان تكونوا مواطنين او والدين . اذا لم تحتضنوا بعاطفتكم الاسرةَ البشرية جمعاء ، واذا لم تشهدوا على ايمانكم بوحدة تلك الاسرة الناجمة عن وحدانية الله ، وبذلك الاخاء بين الشعوب الذي وُجد ليحوّل تلك الوحدة الى فعل ؛ وحيثما تألم انسان او امتهنت كرامة الطبيعة البشرية بالكذب او الظلم ، وكنتم غير مستعدين ، رغم اقتداركم ، لمساعدة المظلوم ، ولم تشعروا بانكم مدعوّون للكفاح من أجل إنقاذ المغدور والمضطهد ، فانكم تخالفون ناموس حياتكم ولا تفهمون ذلك الدين الذي سيكون نعمة المستقبل .

ولكن ماذا يستطيع واحدكم ان يعمل منفرداً من اجل تقدم الانسانية ورقيها الاخلاقي ؟ تستطيعون من وقت لآخر ان تعبروا تعبيرا عمليا عن ايمانكم ، وقد تقومون ، في بعض الحالات النادرة ، بعمل من اعمال الاحسان نحو اخ في الانسانية من غير بلادكم ، لا اكثر . لكن الاحسان ليس شعارا لمذهب المستقبل . شعار المستقبل هو « الاشتراك » والتعاون الاخوي بين الجميع في سبيل غاية مشتركة ؛ وهذا اسمى بكثير من كل احسان ؛ كما ان الصرح الذي تتضافرون جميعكم على بنائه يكون افضل

من كوخ حقير قد يبنيه كل واحد منكم بنفسه او دون اي مساعدة سوى استعارة الحجارة والطين والادوات .

ولكنكم تقولون انكم لا تستطيعون ان تحاولوا القيام بعمل موحد لاختلافكم في اللغة والعادات والنزعات والصفات . الفرد ضئيل جدا والانسانية واسعة جداً . إنّ بحار « بريتانيا » يدعو ربه عندما يركب الموج : « اعنّي يا الهي ، فان قاربي صغير وبحرك عريض » . هذا الدعاء هو التعبير الحقيقي عن حالة كل واحد منكم ، مالم تجدوا وسيلة تضاعفون بها قواكم ومقدرتكم على العمل .

تلك الوسيلة قدّمها الله لكم عندما اعطاكم وطنا ؛ عندما قسم الانسانية الى جماعات متميزة ووزعها على سطح الارض كما يوزع رئيس الفعلة ضروب العمل المختلفة حسب طاقة العمال . الحكومات الفاسدة قد شوهت التصميم الالهي . ومع ذلك يمكنكم ان تقتفوا اثره ، فانه مخطط بوضوح ، على الاقل فيما يتعلق باوروبا ، ومحدد بسير الانهار الكبيرة واتجاه أعلى الجبال ، وغير ذلك من ظروف الجغرافيا .

لقد شوهوه بفتوحهم وجشعهم ونظرة الحسد الى السلطان المشروع عند الآخرين . لقد شوهوه لدرجة ، انا اذا استثنينا انكلترا وفرنسا ، فقد لا نجد دولة واحدة توافق حدودها ذلك التصميم .

هذه الحكومات لم تعترف ولا تعترف بوطن سوى عائلاتها او اسرتها المالكة — تلك انانية الطبقات . ولكن لا بد للتصميم الالهي من ان يتحقق . الفواصل الطبيعية والنزعات العفوية الغريزية عند الشعوب ستأخذ مكان الحدود الجائرة التي فرضتها حكومات الفساد . سترسم خارطة اوربا من جديد . واوطان الشعوب التي تحددها اصوات الاحرار ، ستنهض على انقاض اوطان الملوك والطوائف المتمتعة بالامتيازات وسينشأ بين هذه الاوطان اخوّة وانسجام ، وعمل الانسانية المشترك من اصلاح عام واكتشاف تدريجي وتطبيق لقانون الحياة سيتم بتطور هادىء وتقدم مستمر لانه موزع

حسب المؤهلات العامة والمحلية . عندها يمكن لكل واحد منكم ، وهو مدعوم بقوة وعواطف عدة ملايين يتكلمون جميعهم لغـــة واحدة ، ولهم نفس النزعات الطبيعية ، وقد ترعرعوا في تقليد تاريخي واحد ، ان يأمل في أن يكون قادراً ، بجهده الخاص ، على نفع الانسانية جمعاء .

ايـــه يا اخوتي ، احبوا وطنكم ! وطننا هو بيتنا ، البيت الذي اعطانا الله ، واضعاً فيه عائلة كبيرة تحبنا ونحبها ايضاً ، عائلة نعطف عليها ارقّ العطف ونفهمها اسرع مما نفهم الآخرين ، عائلة معدّة لميدان خاص من ميادين النشاط الانساني لأنها مركّزة في مكان معين ومكوّنة من طبيعة متجانسة العناصر والاجزاء. وطننا هو مصنعنا المشترك ، منه يصدر محصول عملنا لخير العالم كله ، وفيه تجتمع ادوات العمل التي نجيد استعمالها . انـا لا نستطيع ان نرفضها دون ان نتمرد على خطـة الاله القدير وننتقص من قوتنـــا .

إنا نعمل من اجل الانسانية حين نعمل لوطننا على المبدأ القـــويم . وطننا هو نقطة الارتـكاز في الرافعة التي يجب ان نستعملها للخير العام . إذا تركنا نقطة الارتـكاز فانا نجازف في جعـل انفسنا غير صالحين ، لا للأنسانية فحسب ولكن لوطننا ذاته . قبل أن « يشترك » الناس مـــع الاقوام التي تتألف منها الأنسانية ، يجب ان يكون لهم وجود قومي . إذ لا شركة حقيقية إلا بين الاكفـــاء . ولا يكون لنا وجود جماعي معترف به إلا بواسطة وطننا .

الانسانية جيش عظيم يتقدم لفتح اراضٍ مجهولة ، ضد اعداء اقويـــاء وحاذقين . والشعوب هي كتـائب ذلك الجيش وفيالقـه . ولكل شعب مكان مقرر له ، وعملية خاصة يقوم بها ؛ والنصر المشترك يتوقف على الدقة التي بها تنفّذ تلك العمليات المختلفة . لا تخلوا بنظام المعركة . ولا تتخلوا عن العلم الذي اعطاكم الله . حيثما كنتم ، وبـــين ظهراني اي شعب وضعتكم الاقدار كونوا دوماً على استعداد للكفاح من اجل حرية ذلـك

الشعب عند الاقتضاء ، ولكن كافحوا بحيث يعكس الدم الذي تريقون مجداً لا على اشخاصكم فحسب وانما على بلادكم ايضاً .

لا تقولوا : « انا » ، ولكن : « نحن » . ليجتهد كل واحد بينكم في ان يجسّد وطنه في نفسه . ليعتبر كل واحد منكم نفسه ضمانة للوطن ، مسئولاً عن اخوانه المواطنين ، وليتعلم كيف يحكم اعماله حتى تغدو بلاده محبوبة ومحترمة بواسطته . وطنكم هو دليل الرسالة التي خصكم بها الله لتؤدّوها نحو الانسانية . ومواهب جميع ابناء الوطن وقواهم يجب ان تشترك في اداء تلك الرسالة .

الوطن الحقيقي هو جماعة من الرجال الاحرار المتساوين ، يربطهم عقد اخوي للعمل في سبيل غاية مشتركة . وانتم ملزمون بالدخول في العقد وعلى احترامه كذلك . الوطن ليس جمعاً وانما هو اجتماع واشتراك فلا وجودَ لوطن حقيقي بدون حق عام . ولا وطن حقيقي حيث يساء الى اطراد ذلك الحق بوجود الطوائف والامتيازات وعدم المساواة .

وحيثما كان نشاط جزء من قوى الفرد وكفاءاته معطلاً او ناقصاً ، وحيث لا وجود لمبدأ مشترك ، معترف به ، مقبول ومحترم من قبل الجميع ، فلا وجود هناك لأمة حقيقية او شعب . وانما هناك جمع وتكتل من الرجال جمعتهم ظروف ويمكن ان تفرقهم الظروف مرة اخرى . باسم الحبّ الذي تحملون لوطنكم يجب ان تكافحوا ، بسلام ولكن بلا هوادة ، وجود الامتيازات وعدم المساواة في الارض التي منحتكم الحياة .

هناك امتياز واحد مشروع ألا وهو امتياز العبقرية عندما تعلن عن نفسها مقترنة بالفضيلة . ولكن ذلك امتياز يمنحه الله ، وعندما تعترفون به وتتبعون هديه ، تفعلون ذلك بحرية محكّمين في ذلك رأيكم واختياركم . كل امتياز يتطلب منكم انقياداً بداعي القوة او الارث او اي حق آخر غير الحق الشائع بين الجميع ، انما هو اغتصاب واستبداد انتم مضطرون الى مقاومته وإبادته .

ليكن وطنكم معبداً لكم وهيكلاً مقدساً . الله في ذروة الهيكل ، والشعب المتساوي عند الاساس .

لا تقبلوا صيغةً اخرى او قانوناً اخلاقيـــاً آخر ان كنتم حريصين على كرامة وطنكم وشرف نفوسكم . لتكن جميـع القوانـين الثانوية تنظيماً تدريجياً لحياتكم بواسطة التطبيق المتدرج لهذه القاعدة العليا . ولكي تكون القوانين كذلك فأنه من الضروري ان تشتركوا جميعاً في وضعها . والقوانين الموضوعة من قبل قسم واحد من المواطنين ، لن تكون ، بطبيعة الحال ، سوى تعبير عن افكار ذلك القسم وآماله ورغباته ، ولا تكون تمثيلاً للبلاد وانما لثلث البلاد أو ربعها ، ولفئة او اقليم منها .

القوانين يجب ان تكون التعبير عن تطلّع عام . ويجب ان تستهدف الخير العام . يجب ان تكون خفقان قلب الأمة . الأمة باسرها يجب ان تشرّع القوانين بصورة مباشرة او غير مباشرة .

حين تسلمون هذه الرسالة الى ايـدي القلة فأنـكم تضعون انانية طبقة واحدة محلّ الوطن الذي هو اتحاد الطبقات . الوطن ليس مجرد اقليم من الارض . الوطن الحقيقي هو الفكرة التي يلدها الوطن . هو خاطر الحب ، والشعور بالصحبة والاشتراك الذي يوحد كل ابناء ذلك الاقليم . ما دام بين اخوانـكم اخ واحد لا يملك صوتاً يمثل رايه في تطور الحياة القومية ، ما دام هناك رجل واحد متروك للجهل بينما يتثقف الآخرون ، وما دام هناك رجل واحد ، قادر على العمل راغب فيه ، يذوي في الفقر لفقدان العمل ، فأنه ليس لـكم وطن كما ينبغي ان يكون الوطن — وطن الجميع للجميـع .

التربية ، العمل ، الاقتراع العام ، هي الاعمدة الثلاثة الرئيسية للأمـة لا تطمئنوا قبل ان تشيدوها قوية راسخة بعملـكم الخاص وجهودكم .

ولا تتنكروا للامم الشقيقة . لـكم ان تنشئوا حيـــاة وطنكم بقوة وجمال ؛ متحررين من المخاوف الحقيرة والشكوك المريبة ؛ محتفظين بالشعب كأساس له ، وكدليل مبادىء ايمانه مطبقة بمنطق ونشاط ، اما قوته فقوة الجميع الموحدة ، اما غايته فاتمام الرسالة التي حمّله اياها الله .

وما دمتم مستعدين للموت في سبيل الانسانية فان حياة وطنكم تكون خالدة .

رؤيا الوحدة الايطالية

« من مذكرات شخصية كتبها جوزيف مازيني سنة ١٨٦١ وهو في انكلترا . »

•

لست في حاجة الى ان اذكر هنا كيف ان غرائز ايطاليا واتجاهاتها ، كما بدت لي عبر التاريخ وفي تكوينها الاجتماعي ، ساقتني الى اعتبار الوحدة والجمهورية من مقاصد الاتحاد المنشود .

يكفي ان اقول بان الفكرة المبدعة الخلاقة لم تكن تحسين حال الشعب الواحد الذي كنت اراه مفككا ، مضطهدا ، محتقرا ، وانما كانت احساسا داخليا بان ايطاليا في نهضتها سوف تستهل حياة جديدة ، ووحدة فعالة لامم اوروبا . ومهما كان افتتاني ، على حيرة مني ورغم انفي ، بالكلمات الحارة التي لفظتها فرنسا بين الصمت العام كما لو كانت صادرة عن ضمير هادٍ ، فقد كانت تضطرب في نفسي الفكرة التي اعلنت فيما بعد ، وهي ان في اوروبا فراغا كبيرا ، وان البحث عن سلطة حقيقية ، صالحة ، مقدسة هو سر حياتنا جميعا اعترفنا بهذا ام لم نعترف ؛ سلطة ينكرها عن طيشٍ اولئك الذين يحسبونها هاجسا او خيالا او سلطانا كاذبا ، ويظنون انهم ينكرون الله بينما هم لا ينكرون سوى الاوثان . ان البحث عن تلك السلطة قد اختفى او انتهى في ايطاليا ، ولم يبق من ثم لايّ شعب قوة الخلق والابداع .

اثبتت هذه الفكرةَ في ذهني بصورة نهائية سنواتٌ ودراسات واحزان ، وحوّلتها الى ايمان . واذا كان مقدّراً لي ان اعيش ، بعد تأسيس الوحدة

الايطالية ، سنة واحدة منعزلاً في زاوية من ارض بلادي او حيث اكتب الآن ، وهي بلادٌ جعلها الود وطنا ثانيا ، فاني سأحاول ان اتعهد هذه الفكرة وأصل الى نتائجها .

اما في ذلك الحين فقد كان يكفيني ان يلتمع ، كالنجم في صدري ، املٌ جسيم : ايطاليا تبعث من جديد وتغدو للانسانية في وثبة واحدة ، رسول ايمانٍ بالتقدم والاخاء ، ارحبَ من ايمانها القديم .

وجدت في اعماقي عبادة روما . فضمن جدرانها انشئت الحياة الواحدة للعالم مرتين . وكانت الحياة فيها خالدة والموت غير معروف ؛ بينما اندثرت شعوب كثيرة بعد تأدية رسالة قصيرة ، ولم يباشر شعب آخر زعامة العالم مرتين .

على بقايا حضارة سبقت اليونان وكانت قاعدتها ايطاليا ، قامت روما الجمهورية التي ختمها القياصرة ، وطافت العالم بجناحي نسر ، ناشرةً فكرة الحق ، وهي اصل الحرية .

بعد ذلك ، بينما كان الناس يبكون على ضريحها هبت روما ثانية اعظم من قبل ، ولم تكد تنهض حتى تبوّأت على عهد الباباوات المركز المقبول لوحدة جديدة رفعت قوانين الارض الى السماء واضافت الى فكرة الحق فكرة الواجب المترتب على الجميع وفجّرت بذلك ينبوع المساواة .

فلمَ لا تُبعث روما ثالثة ، روما الشعب الايطالي التي خيّل اليّ اني ارى منها الطلائع ، وحدة ثالثة اوسع وابدع توفق بين الارض والسماء ، بين الحق والواجب ، وتدعو الشعوب لا الأفراد الى اتحاد يعلّم الاحرار المتساوين واجباتهم على الارض .

فكرت في هذه الامور وانا في سجن سافونا ؛ واني افكر فيها اليوم بمنطق اسلم ورأي أوضح في غرفة ليست ارحب من غرفة السجن .

في حياتي لم يستطيعوا ان يتهموني بسوى الخيال او الجنون وكثيرا ما جعلتني الاهانات والآمال الكاذبة انظر بشوق وحسرة الى حجرتي في

سجن سافونا ، بين البحر والسماء ، بعيدا عن النـاس . وسيحكم المستقبل فيما اذا كنت حالما او نبيا .

واليوم يتولى إنعاش ايطاليا اناس ماديون لاخلاق لهم ، يمجدهم الجاهل والفاسد والسوقة . وهذا ما يكاد يقضي على املي . ولكن ما يراه الناس موتاً اراه نوما عميقا فحسب .

استخلصت من هـذه التأملات جميعا ان العمل الجديد يجب ان يكون اخلاقيا قبـل كل شيء ، لا عملا سياسيا ضيقا ؛ عملا روحيا ، لا سلبيا ؛ يقوم على المبادىء وليس على نظرات المصالح ؛ على الواجب لا على تحسين العيش .

المدارس الاجنبية للمذهب المادي عذبتني شهورا طويلة في اثناء دراستي الجامعية . اما التاريخ ووحي الضمير ، وهما قسطاس الحق ، فقد ردّاني بسرعة الى روحانية آبائنا الاولين .

في الحرب الأهلية

« خطبة ابرهيم لنكولن (Lincoln) في الحرب الاهلية الاميركية عند تدشين مقبرة (Gettysburg) في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٨٦٣ . والتاريخ يسجل لابرهيم لنكولن انه الرئيس العظيم الذي اخضع الولايات الجنوبية الثائرة وحرر العبيد وانقذ الاتحاد الاميركي . »

●

منذ سبع وثمانين سنةً انشأ آباؤنا في هـذه القارة امة جديدة طُبعت على الحرية واتخذت لنفسها هذا الشعار : خُلق الناس جميعاً متساوين .

ونحن الآن منشغلون بحرب اهلية كبرى يُمتحن فيها ثبات امة لها مثل نشأتنا ومبادئنا . وقد اجتمعنا في ميدان عظيم من ميادين تلك الحرب وجئنا لندشن قسماً من هذا الميدان ليرقد فيه بسلام اولئك الذين ماتوا لتحيا امتهم . وانه لمناسبٌ ولائق ان نفعل هذا .

لكنا لا نستطيع ، بمعنى اوسع ، ان نكرس او ندشن او نحيط بهالة من نور ، هذه الارض . لان الاموات والاحياء من الابطال الذين كافحوا ههنا قدّسوها فوق قدرتنا على ان ننقص من قداستها او نزيد .

ان العالم قلما يلاحظ ، وان لاحظ فلن يذكر طويلاً ما نقول اليوم ههنا ، لكن العالم لن ينسى ما فعلوا أمس في هذا المكان . واجـدر بنا نحن الاحياء ان نكرس انفسنا لنكمل عملاً ابتدأه بنبلٍ اولئك الذين قاتلوا ههنا ، وعلينا ان نقف نفوسنا الآن على المهمة الماثلة امامنا ، وان نستمد من هؤلاء الشهداء المكرمين اخلاصاً متزايداً للقضية التي اخلصوا لها حتى النهاية .

ولنتخذ ههنا قراراً رفيعاً بان لا يذهب استشهاد هؤلاء سدى ، وان هذه الامة ، برعاية الله ، ستولد ولادة جديدة في الحرية ، وان حكومة من الشعب ، بالشعب ، وللشعب لن تزول من الارض .

الى المعلمين والمعلمات

«كان جان جوريس (Jean Jaurès) زعيم الاشتراكية الفرنسية في مطلع هذا القرن ، وكانت اشتراكيته من طراز رفيع ، تؤمن بالله وتحب الانسان وترعى حقوق الوطن وتلتمس الاصلاح بالتي هي احسن. وكثيراً ما تحدث جوريس الى المربين ، وفي مقالة نشرت في (Dépêche de Toulouse) بتاريخ ١٥ كانون الثاني سنة ١٨٨٨ حدد مهمتهم كما يأتي .»

•

عقول الناشئين ونفوسهم بين ايديكم ؛ وانكم لمسؤولون عنها امام الوطن . الاطفال الموكولون اليكم ليس عليهم فقط ان يكتبوا او ان يحلوا رموز كتاب ، وان يقرأوا العناوين في زاوية شارع ، وان يحسنوا الجمع والضرب ، انهم فرنسيون ويجب ان يعرفوا فرنسا : جغرافيتها وتاريخها ، جسمها وروحها ، وسيصبحون مواطنين ويجب ان يعلموا ما الديموقراطية الحرة ، ايّ حقوق تمنحهم واي واجبات تفرض عليهم سيادة الامة . واخيراً سيصيرون رجالاً ويجب ان تتكوّن لديهم فكرة عن الانسان . ويجب ان يعرفوا علة مصائبنا كلها : اعني الانانية باشكالها المتعددة ، وان يعرفوا ايضاً مبدأ عظمتنا : الا وهي العزة والكبرياء مع الوداعة والحنان ، ويجب ان يكونوا قادرين على ان يتصوروا ، بالخطوط الكبرى ، الجنس البشري متغلباً شيئاً فشيئاً على قسوة الطبيعة وجموح الغريزة ، وان يتبينوا العناصر الرئيسية في ذلك الصرح العجيب الذي يدعى الحضارة . ويجب ان نريهم عظمة الفكر ، ويجب ان نعلمهم احترام النفس

وتقديسها بايقاظ شعورهم العميق بوجود إله هو مصدر فرحنا وقوتنا ايضاً ، لأننا به نقهر الشر والظلمة والموت .

ربما تتعجبون قائلين : أكل هذا لاطفال ! — نعم ، كل هذا ، إذا شئتم الا تقتصروا على انتاج آلات للتهجئة . اني أدرك مشقات هذه المهمة . انكم تحتفظون بتلاميذكم سنين قليلة وليسوا دائماً مجتهدين ، خاصة في الريف ، وينسون في الصيف القليلَ الذي تعلمّوه في الشتاء . وكثيراً ما يصيبهم عند الخروج من المدرسة ردّات عميقة الى الجهل وكسل الروح . اكاد ارثي لمن كان له منكم طموح كبير لتربية ابناء الشعب ، لولا ان الطموح الكبير يفترض شجاعة عظمى .

هناك من يقول : « ما الفائدة من طلب كل هذا من المدرسة ؟ أليست الحياة نفسها مدرسة كبرى ؟ الا يفهم الناشيء الراشد ، عند الاحتكاك بديموقراطية حية ، شيئاً بنفسه عن فكرة العمل ، والمساواة ، والعدالة وكرامة الانسان التي هي الديموقراطية نفسها ؟ اتمنى ان يكون الامر كذلك رغم انه يوجد في مجتمعنا ، الذي يحسبونه صاخباً ، اعماق راكدة كالمستنقعات تسكن فيها النفوس .

لكن مصادفة الديموقراطية بالعقل اولاً شيء ، ومصادفتها بالعاطفة شيء آخر . تستطيع الحياة ان تمزج في نفس الانسان مع فكرة العدالة المتيقظة في زمن متأخر ، طعماً مريراً من كبرياء جريح او شقاء ، من ذكرى وألم . فلماذا لا نقدم العدالة لقلوب غضة جديدة ؟ يجب ان تكون افكارنا جميعها ممهورة بطابع الطفولة ، اي بالمروءة الخالصة والصفاء .

الوطنية لا تيأس

« من خطبة لمصطفى كامل باشا زعيم الوطنية المصرية وباعثها ، القاها في الاسكندرية سنة ١٨٩٧ » .

•

سادتي وابناء وطني الاعزاء

اني بفؤاد ملؤه الفرح والسرور اقف الليلة امامكم متكلما عن شئون الوطن المحبوب ومصالحه . واني لأقابل انعطافكم نحو اضعف خدمة البلاد بمزيد الحمد والشكران . واستميحكم العفو اذا قصرت في اداء هذا الواجب . فاني انما أسر بهذا الانعطاف وبهذه المظاهرات . لا لأنها موجهة لشخصي الضعيف بل لأنها اكبر دليل علميّ على حياة الشعب المصري ، واقوى حجة تكذب دعوى القائلين بان مصر وطن لا وجود للوطنية فيه ، وان ابناء وادي النيل يقدمون بانفسهم الى ألد اعدائهم وطنهم واقدس ميراث لآبائهم واجدادهم .

اجل ايها السادة ، انكم باجتماعكم اليوم هذا الاجتماع الوطني ترفعون كثيرا من مقام الوطنية المصرية وتخففون من آلام مصر العزيزة التي قاست وتقاسي اشد العذاب على مشهد منكم يا أعزّ بنيها ويا نخبة انجالها . فكل اجتماع وطني تذكر فيه مصر ويُطالب بحقوقها ويعلن ابناؤها اخلاصهم لها هو في الحقيقة مرهم لجراحها ودواء لدائها فاذكروها ما استطعتم فان في ذكراها ذكرى آلامها وذكرى آلام تجرّ حتما الى ذكر عوامل الشفاء . اذكروها كما يذكر الولد الحنون امه الشفيقة وهي على سرير المرض

والعناء . أذكروها بآلامها وان كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها . اذكروها فانكم ما دمتم مقدرين لمصائبها عارفين بحقيقة آلامها دام الامل وطيداً في سلامتها ودام الرجاء . **اذكروها فمن المستحيل ان يرى العاقل النار في داره والداء في شخص امه ويهمل النار ويهمل الداء .** ومن المستحيل كذلك ان يكون الوطن في خطر ونحن نيام . وان يعمل الاجنبي لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل ولا حراك .

•

ألقوا أيها السادة بانظاركم قليلا الى الامم الحرة تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه ويذود عن حوض بلاده اكثر من دفاعه عن ابيه وامه ، بل هو يرضاهما ضحية للوطن ويرضى نفسه قبلها قربانا يقدمها لاعلان شأن بلاده ، ويعدّ الموت لاجل الوطن حياةً دونها الحياة البشرية ووجودا دونه كل وجود . فلم لا يكون المصري على هـذا الطراز ووطنه اجمل الاوطان واحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة ؟

اسألوا التاريخ ايها السادة ما واجب امة دخل الانجليز ديارهـا خدعةً وعملوا لامتلاكها وسلبها كل سلطة وكل قوة يجبكم التاريخ ان واجب امة هذا شأنها ان تعمل بكل ما في استطاعتها ضد مغتصبها ، وان تبذل في سبيل خلاص وطنها كل ما تمتلك من مال ورجال .

اجل ، كل احتلال اجنبي هو عارٌ على الوطن وبنيه . والعار واجب ان يزول . ولست اقصد بهـذا الكلام ان اسألكم باسم الوطن اعلان ثورة دموية ضد محتل البلاد . كلا ثم كلا . ان اقل الناس ادراكا لمصلحة مصر يعلم علم اليقين انها منافية لكل ثورة وكل هيجان . وانما اسألكم ان تعملوا بكل الوسائل السلمية على استرداد الحقوق المسلوبة منكم وان تعملوا لأن تحكم البلاد بابناء البـلاد . نعم اني اعلم ان الاحتلال قوي السلطة عظيم الرهبة شديـد العقاب ، وان العمل ضده موجب للعذاب

مسبب للفقر والفاقة . ولكن في الرضى بالاحتلال الخيانة والعار ، وفي العمل ضد الاحتلال الشرف والفخار .

فيا ذوي النفوس الابية ويا ذوي الضمائر الحية ، اطلبوا الشرف ولو مع الفقر . اخدموا الوطن ولو أُسقطت على رؤوسكم الصواعق . كونوا مع مصر إن سعيدة فسعداء ، وإن تعيسة فتعساء . قولوا لعدوّها في وجهه : انت عدو لنا . ولصديقها : انت صديق لنا . لا تحبوا من يرميها بنبال الموت بل امنعوه عنها ان قدرتم ، ثم ردوها في صدر راميها ان استطعتم ، وإن لم تستطيعوا فكونوا معها لا مع المعتدين .

•

وان لمصر غير المحتلين اعداء آخرين هم آلات الاحتلال ، آلات الفساد . فان ذكرتم الاعداء فاذكروا الخونة فهم الد الاعداء . واي الاعداء هم ؟ . اولئك الذين انكروا الوطن والوطنية ، وائتمنوا على مصالح الامة فعرضوا بها للدمار . اولئك الذين ابرتهم مصر فقابلوا برها بالسوء وصاروا اليوم في ايدي المحتلين ضد الوطن العزيز . آلات الدمار . آلات الخراب ، اولئك الذين كلما صعدوا درجاً من درجات المناصب نزلت نفوسهم دركاً وفقدوا نصيباً من الشرف وسمو الاحساس . اولئك الذين يبيعون الوطن على مشهد من الامم ويسيرون بين الناس حاملين لواء الخيانة والعار . اولئك الذين اذا مد اليهم الوطن يد الاستغاثة مدوا اليه سيوفاً ليقطعوا بها يده الشريفة .

هؤلاء هم الخونة وهم اشد الاعداء ضرراً . ويعلم الله ان الدم الذي يجري في عروقهم هو دم فاسد ليس بالدم المصري الصادق . وانهم مهما ذاقوا من لذة الحياة الظاهرية فسينالهم العقاب اقسى العقاب ولو من انفسهم متى حاسبوا ضمائرهم . نعم سيُعاقب الخائنون على خيانتهم . فكم رأينا في التاريخ رجالاً خانوا اوطانهم وساعدوا الاعداء على امتلاك بلادهم فعوقبوا على خيانتهم لا من ابناء وطنهم فقط بل من نفس الاعداء الذين

خدموهم وساعدوهم . هذه سنّة الله في خلقه . يُقتل القاتل عقابا على عمله فكيف بمن يعتدي على امة بأسرها بالخيانة ويعتدي عليها بالسلاح الذي سلمته اياه ليدافع به عنها .

نعم سيُعاقب الخائنون وسيحمل ابناؤهم من بعدهم علم الخيانة على رؤوسهم وسيبقون في التاريخ مثلا كبيراً للأبناء والاعقاب .

•

وان ذكرتم الاعداء فاذكروا المنافقين فهم خونة تفننوا في اساليب الخيانة يظهرون امامكم بمظهر المخلصين وهم يدبرون مع الاعداء المكائد والدسائس ، فهم ذوو وجهين وذوو لسانين فحاذروهم وأعلنوا امرهم ليخيب مسعاهم وتحبط اعمالهم .

ايها السادة ؛ اعداء الوطن عديدون ومصائب الوطن عديدة وبديهي ان ازدياد الاعداء يزيد من واجبات الوطنيين المخلصين لبلادهم **فلا تظهر الوطنية الحقة الا في اوقات الخطر ولا تعرف الهمم الا عند المصائب .** وغني عن البيان أن الامة بأسرها كارهة للاحتلال ، راغبة في الجلاء والحرية وقد اظهرت هذه الرغبة في ظروف عديدة وجاهرت بها حيناً بعد حين . إلا انها كسائر الامم في حاجة لان يرشدها ابناؤها المتعلمون ورجالها الخبيرون . ويسرني كما يسر كل مصري صادق ان الناشئة المصرية عارفة بواجباتها نحو الوطن العزيز ، فهم ابناء الوطن وهم رجال المستقبل وبهم تحيا البلاد وبهم تقوم .

ولكن هناك فئة من المصريين لا انكر اخلاص رجالها للوطن العزيز ولكن انكر عليهم اليأس الذي يتظاهرون به في كل وقت وفي كل مكان ، فهم ما عملوا ولا يعملون للبلاد عملا نافعا ولكنهم جعلوا اليأس علة عدم العمل وعلة الكسل . فان سألتهم لم لا تقومون بعمل عمومي نافع للبلاد اجابوك : « نحن يائسون من مستقبل الوطن معتقدون بظلمة الايام الآتية » .

فبالله كيف يستطيع طبيب ان يحكم على عليل بعدم الشفاء قبل ان يفحص داءه ويعطيه الدواء ؟ على اننا نرى الكثير من الاطباء لا ييأس ابداً من شفاء المريض حتى في آخر لحظة من حياته . فكيف ييأس رجال من بني مصر من مستقبل البلاد ؟ وهم ان كانوا قد خبروا داء مصر فيعلم الله ويعلم الناس انهم الى اليوم ما قدّموا لها الدواء . كيف نيأس من المستقبل والمستقبل بيد الله وحده . وكثيراً ما تأتي الحوادث بخلاف المنتظر وبغير حساب . كيف نيأس من المستقبل وقد ارانا التاريخ امماً حكمها الاجانب قروناً طويلة ثم قامت بعد الذل والاسترقاق مطالبةً بحقوقها واخرجت الاعداء من ديارها واستردت حقوقها وحريتها .

هي النفوس الصغيرة التي يُخلق عندها الامل بكلمة او بتلغراف ، ثم يستولي عليها اليأس بكلمة او بتلغراف . اما النفوس العالية الكبيرة فيدوم فيها الامل ما دام الدم في العروق وما دامت الحياة .

واي حياة ترضاها النفوس الشريفة مع اليأس . ايجمع المرء في جسم واحد الموتَ والحياة . إذ اليأس موت حقيقي واي موت .

كيف نيأس ونحن جميعاً عالمون بأن ما يظهر طويلاً في حياة الافراد هو قصير في حياة الشعوب . فعشرٌ من السنوات في حياة الانسان طويلة حقاً ولكنها في حياة الامة قصيرة جداً . على انه اذا كان اليائسون معتقدين صحة افكارهم فعارٌ عليهم ان يقوموا في الامة بوظيفة تثبيط همم الآملين والآملون في البلاد كثيرون بل الامة كلها مؤملة خيراً في المستقبل. وان لم تظهر الى الآن اعمال الآملين فستظهر بعد قليل وسترى الامة المصرية وامم العالم اجمع ان للوطن المصري ابناء مخلصين يقدرون الوطنية قدرها ويعرفون لمصر حقوقها ولا يخافون الاحتلال وقوته بل يجاهدون في سبيل خلاص البلاد منه اشد الجهاد واحسنه . ولا غرو فان سبل خدمة الوطن عديدة وان اهمها اعلان الحقيقة في كل بلد وكل زمان ، فالحرية بنت الحقيقة وما انتشرت الحقيقة في امة إلاّ ارتفعت كلمتها وعلا شأنها . فالحقيقة

نور ساطع إذا انتشر اختفى الظلم والظلمـــة وانتشرت الحرية والعدل . فكما ان الافراد لا تسلب حقوقهم ولا يعتدي اللصوص على امتعتهم إلا في ظلام الليل الحالك ، فكذلك شأن الامم لا تُسلب حقوقها ولا يعتدي العدو على املاكها إلا إذا كانت الحقيقة مجهولة فيها وكانت هي عائشة في الجهل والظلام .

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

للعمال وطن

« يبيّن جان جوريس في الفصل العاشر من كتابه (L'armée nouvelle) ان الطبقة العاملة ليست خارج الوطن ، وان العبارة المشهورة الواردة في البيان الشيوعي (ليس للعمال وطن) لم تكن سوى نزوة عاطفية . »

•

اذا اريد تحديد الدولة الحديثة باخص صفاتها فلا يمكن ذلك ، في الصيغة على الاقل ، إلا بادخال فكرة الحركة . يمكن القول انها التعبير عن ديموقراطية بورجوازية حيث تنمو الطبقة العاملة وتزداد قوة .

والزعم بان طبقةً ظفرت بالاقتراع العام ، وانتزعت من البرجوازية امتيازها السياسي ، وضمنت لجميع ابنائها حداً ادنى من التعليم في مدارس يعتبر رقيها وتقدمها الشغلَ الشاغل وموضع فخار الامم المتمدنة ، واستطاعت ان تخلص التعليم العام من ضغط المعتقدات التي تدعو للاستسلام ؛ الزعم بان طبقة تستطيع ان تنظم شئونها بحرية ، لا بدون مخاطرة فحسب ولكن مع خطر يتناقص بقدر ما يتوسع العمال في استعمال حقهم ، طبقة تستطيع ان تمتنع عن العمل وتقوم باضرابات متفاقمة على الدوام ، يصيبها منها اذى بدون شك ولكنها ليست وحدها دائما في احتمال الاذى ، وقد نتج عن الاضرابات بمجموعها ارتقاء في مستوى الطبقة العاملة وازدياد في قوتها وسلطانها ؛ ان طبقة تتقدم بمنهاج من طلبات متلاحقة تفرض موادها نفسها ، واحدة بعد الاخرى ، على الديموقراطية وتنشر فكرة تغيير

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

اساسي ، والتي اصبحت ، بفضل تكوين الجيوش الحديثة وتطورها في اتجاه الحرس الاهلي ، في قلب السلطان الاجتماعي وفي معقل الدولة ؛ القول بان هذه الطبقة ليست إلا صفرا في توازن القوى الاجتماعية وانها لا تدخل في تكوين الدولة ولا في تعريفها ، وانها محكوم عليها بان تبقى لا شيء الى يوم تصبح فيه كل شيء ، انما هو زعم يعاكس الوقائع ، وينكر حركة الاشياء ويبيد كل ما غنمته الطبقة العاملة .

انه زعم ناتج عن تعصب الفكر المجرد ، وهو فعل رجعي رغم انه صادر عن محور ثوري . انه تثبيط للجهد اليومي الذي لا يكون بدونه تحرير كامل . وبما ان قوة الحياة الكامنة في الشعب تتمرد بصورة عفوية على هـذا التشاؤم المصطنع فان ذلك الزعم ينقص فعالية الشعب والطبقة العاملة بهذا التناقض المعطل للحركة ، بين كلمات تعاد واشياء تحقق . وهو يُبعد عن الطبقة المتمتعة بالامتيازات الشعورَ بما لا بد منه وبما لا يُعوّض ، وهو شعور يستولي عليها اذا عرفت الطبقة العاملة قيمة كل كسب جزئي واستغلته كدرجة في سلم ارتقائها . وهي اذا وعت قوتها فانها تنميها . واجازف بالقول انه لا ينقص الطبقة العاملة اليوم حتى تكون قوة كبيرة في الدولة سوى ان تعلم مقدار ما تستطيع بالفعل المنظم ضمن الديموقراطية .

ليست الطبقة العاملة اذن خارج الوطن . وعندما طلع بيان ماركس وانجلز سنة ١٨٤٧ بالعبارة المشهورة التي تُقتبس كثيرا وتستغل بشتى الطرق (ليس للعمال وطن) ، لم يكن ذلك سوى نزوة عاطفية وردّ متناقض ، وفي غير محله ، على حجج الوطنيين البورجوازيين الذين اعتبروا الشيوعية مهدمة للوطن . حتى ان ماركس نفسه اسرع الى تصحيح وتحديد معنى تلك الصيغة واضاف في الوقت ذاته :

« لا شك ان العمال يجب ان يظفروا اولا بالسلطان السياسي ، وان يفرضوا انفسهم كطبقة وطنية مهيمنة ويؤلفوا بانفسهم امة ؛ وهم بهـذا المعنى يظلون متمسكين بقوميتهم ، ولا يظلون كذلك بالمعنى البورجوازي ».

وهذه معانٍ مفرطة في الدقة ، غامضة ، وهمية . كيف تستطيع الطبقة العاملة ان تبعث نفسها امة اذا لم تكن الامة موجودة اصلا واذا لم يكن للعمال بها صلات حية ؟ واذا كان المعنى المقصود في البيان الشيوعي ان ليس للعمال وطن ما داموا غير مسيطرين سيطرة تامة على الوطن ، وطالما انهم لم يظفروا بكامل السلطان السياسي ، فيجب ان يعلن ايضا عن عهد الملكية الطويل منذ انشاء البلدان حتى الثورة الفرنسية : « ليس للبورجوازيين وطن » . وهذا معناه انهم يقيمون سلسلة من الثورات النظرية المصطنعة مقام التطور الثوري العميق الذي عرّفه ماركس نفسه بكثير من القوة . وهو انكار ساخر للتاريخ ذاته ونفيٌ لما جاء به المنطق الماركسي من قويّ ومبتكر . انها الفكرة على مذبح الهوى .

وطنيـــة كليمانصو

« خلاصة بضع صفحات عن جورج كليمانصو (George Clemenceau) **وردت في كتـاب ونستون تشرشل « عظماء معاصرون » .**

•

كتبت صفحات كثيرة حول خصومة فوش (Foch) وكليمانصو وابدى الكثيرون اسفهم لذلك الخصام . ودعي القراء الى استنكار اللوم المتبادل بين توأمَيْ النصر ومنقذَيْ فرنسا في ازمتها الكبرى . وكان الخصمان شيخين كبيرين ، معممين بالمجد ، يقتربان من القبر . انهما ملك التاريخ وان لهما صفحة خالدة في صفحاته . فلماذا يمزقون تلك الصفحة ؟ ولو ان كليمانصو عامل فوش بخشونة واخرجه من الميدان السياسي فور احرازه النصر ، او ان فوش ارسل تمثاله النصفي الى كليمانصو ليحظى برعايته ، فقد كان الاولى الا تروى تلك الروايات . كل شيء يجب ان يقدم للاجيال في اطار من الأدب واللياقة . يجب الا يُسمح للِنثار بالتراكم حول صرح لا ينبغي ان ينقش عليه غير الاعمال العظيمة الفاضلة التي قام بها الرجال .

لا استطيع الموافقة على هذا الرأي . ان عروس التاريخ لا ينبغي ان تكون صعبة الارضاء،يجب ان ترى كل شيء ، وتلمس كل شيء وتشمّ كل شيء ان كان ذلك بالامكان ، ولا تخشى ان تحرمها تلك التفاصيل من الروعة الشعرية والبطولات . الهنات المسجلة والقيل والقال قد تهدم — ويجب ان تهدم — صغار الرجال .. ولكنها لا تؤثر فيمن شغلوا ، بشرف ، المراكز الاولى في اشد العواصف . جيل او جيلان — قرن بدون شك ، سيعطي

هذين الرجلين قيمتها الحقيقية . وحكم احفادنا لن يكدره نزاع الرجلين في الأيام الاخيرة .

ان مكانة فوش بين قواد العالم العظماء قد تكون موضع اخذ ورد ، ولكن من المؤكد ان كليمانصو كان واحداً من عظماء العالم . والحقيقة ان كليمانصو جسّد فرنسا وعبر عنها . وبقدر ما يستطيع اي فرد من الناس ان يكون امة ، كان كليمانصو فرنسا . يمثل الخيال الامم بحيوانات رمزية — الاسد البريطاني ، النسر الاميركي ، الدب الروسي ، والديك الفرنسي ، لكن النمر القديم بقبعته الغريبة وشاربه الابيض وعينه المتقدة يؤلف رمزاً سعيداً لفرنسا اصدق من اي حيوان داجن .

انها صورة للثورة الافرنسية في لحظتها الرفيعة ، قبل ان تلحق بها مجازر الارهابيين . انه يمثل الشعب الفرنسي واقفاً في وجه الطغاة : طغاة العقل ، طغاة الروح ، طغاة الجسد . الطغاة الاجانب وطغاة الوطن ، المختلسون ، المحتالون ، الخونة ، المجتاحون ، الانهزاميون — جميعهم كانوا في نطاق وثبة النمر ، وشنّ عليهم النمر حرباً لا هوادة فيها . عدوّ الكنيسة ، عدو الملكية ، عدو الشيوعية ، عدو الالمان — لقد مثّل في كل ذلك روح فرنسا الغالبة .

وكان هناك مزاج آخر وفرنسا اخرى . إنها فرنسا فوش — قديمة ، ارستوقراطية ؛ فرنسا التي اهدت الى العالم كياستها وثقافتها وآدابها وتقاليدها تلك فرنسا الفروسية ، فرنسا فرساي ، وفرنسا جان دارك قبل كل شيء ، تلك هي الشخصية القومية الثانوية المغمورة التي استعادها فوش . وفي التقاء هذين الرجلين في السنة الاخيرة من الحرب وجد الشعب الفرنسي في خدمته خلاصة فرنسا وامجاد الغال .

لقد جسّد احدهما تاريخ فرنسا القديم وجسد الآخر تاريخها الحديث . وبين التوأمين جرى نهر من دماء الثورة . وقامت بينهما حواجز ترفعها المسيحية امام اللاأدرية . ولكن حين تطلّعا الى الكلمات المنقوشة على تمثال

جان دارك الذهبي « الاشفاق الذي تولاها على مملكة فرنسا » ونظرا سيف الفتاة مرتفعاً لامعاً خفق قلباهما معاً كقلب واحد . للشعب الفرنسي طبيعة مزدوجة لدرجة لا يملكها اي شعب عظيم آخر . فلا نظير لهذا الازدواج في بريطانيا او الولايات المتحدة او حتى في المانيا . انه نزاع لا ينتهي ويستمر ابداً في كل برلمان متعاقب وفي كل شارع وفي كل قرية وفي صدر اكثر الفرنسيين ان لم اقل كل الفرنسيين . ولا يعرف هذا النزاع هدنةً إلا حين تكون فرنسا في خطر مميت . ان زمالة فوش وكليمانصو تصوّر ، كما في صدَفة ، تاريخ فرنسا .

كان الرجل مزوداً بخبرة نصف قرن ومثقلاً بعداوات نصف قرن ، حين دُعي الى دفة الحكم في اسوإ مراحل الحرب . وكان كثيرون من قواد فرنسا قد فقدوا الثقة والاعتبار، وفشلت خططهم جميعها. وانتشر العصيان في الجبهة ولم يقضَ على التمرد الا بصعوبة . وامسكت بخناق باريس مؤامرات عميقة ملتوية . ونزفت دماء بريطانيا وانهار الروس ، وكان الطليان في النفس الاخير ، والاميركيون على بعد بعيد ، وشبح العدو الجبار بوقاحة ، وخيل الينا حينذاك انه لا يُغلب . وفي تلك اللحظة ، وبعد ان جرب كل تدبير ، دعي الشيخ الكاسر الى ما كان في الواقع دكتاتورية فرنسا . عاد الى الحكم كما عاد ماريوس الى روما ؛ يشك فيه الكثيرون ، ويخافه الجميع ، لكنه قضاء واقع لا بد منه .

في ذلك الحين بدأت أتعرف إلى كليمانصو ، وكان عملي كوزير تموين كثيراً ما يحملني الى باريس فأجد نفسي على الدوام بين وزراء فرنسا . ورأيت كليمانصو في مجلس النواب واستمعت الى خطابه في الصباح ورده على خطب النواب .

يصعب على أجنبي لا يلم باللغة الفرنسية غير إلمام يسير ولا يستشعر الجو الغريب إلا بطريقة غير مباشرة ، ان يحكم على المواقف الخطابية . لا شك ان كليمانصو كان اقرب الى أصول مجلس العموم في المناطرة من اي برلماني

فرنسي آخر سمعته . ان اساس النقاش في مجلس العموم هو المحادثة الرسمية . الخطاب المعدّ والخطبة الموجهة الى الناخبين او الى الجمهور الاكبر خارج المجلس لم تنجح قط في مجلسنا الصغير . لكي تفلح في مجلس العموم يجب ان تملك ناصية الموضوع وتنشىء علاقة انسانية مع السامعين . وبدا لي ان كليمانصو قد فعل كل ذلك ؛ وطاف من اول المنبر الى آخره ، بدون مفكرة او صحف او قصاصة ورق ، يزأر بحدة ، وتدفقت عباراته متقطعة تعبر عن خواطر فكر سريع . وبدا الحيوان الهائج ينقل الخطى جيئة وذهاباً خلف قضبان الحديد ، محملقاً مزمجراً . وكل من حوله رجال ودوا لو فعلوا كل شيء ليحولوا بينه وبين ذلك المقام ، ولكنهم شعروا بواجب الطاعة له ما داموا قد وضعوه هناك . ولم يكن هناك موضع للكلام والاقناع . غرائز بدائية جمدها الألم ، اخطار مريعة قريبة تزداد كل يوم اقتراباً ، إعياء مخيف ، وتشاؤم عميق — كل ذلك ضبط الجمهور . الورقة الاخيرة يجب ان تُلعب ، فرنسا عزمت على تحطيم القفص وإطلاق النمر على أعدائها كلهم وراء الخنادق وفي قلب البلاد . ولم يكن من حاجة الى لغة وفصاحة وبراهين للتعبير عن الموقف . ومضى الشيخ الجسور والوحش الضاري الى العمل مدمدماً مزمجراً .

على هذا الشكل ابتدأت معركة الموت مع ألمانيا . وكان مقدراً لها ان تستمرّ سنة كاملة .

طعون قاسية وأذىً لحق بفرنسيين بارزين . واعدام الذين ثبتت خيانتهم لم يكن إلا رمزا لارهاب كامن قد يرسل عند الاقتضاء رجالا لم يكن لهم ذنب غير شرود الفكر ، رجالا احتلوا فيما سبق أعلى منصب في الدولة ، ليقابلوا فرقة اعدام في فنسين (Vincennes) . مجرد المعارضة او الصلة باصدقاء فاترين او انهزاميين كانت كافية لأن تعرّض رجال دولة من الطبقة الاولى لخطر الاعتقال على اقل تقدير . لقد القى كليمانصو الذعر في قلوب الناس ونشر الخوف في كل الجهات لكن

احدا لم يشعر بشدة وطأته اكثر من الألمان .

وجاءت الازمة الكبرى . ووصل الالمان ثانية الى المارن (Marne) . وشوهدت من اعالي مونمارتر (Montmartre) ومضات المدفعية على الافق البعيد . وطوّق الاميركيون في شاتو تييري (Chateau tierry) . وكان لنا في ضواحي باريس مستودعات ذخائر هامة ومصانع طيران . وكان علينا ان نتهيأ لنقلها ولتدبير اماكن لها في الجنوب ؛ لذلك كنت كثير التردد على العاصمة الافرنسية .

قبل ان يبتدىء الحربَ يجب ان يقول المرء : « انا قوي ، ولكن كذلك العدو » . وفي اثناء الحرب يجب ان يقول : « انا منهوك القوى ، وكذلك العدو » . ويكاد يكون مستحيلا ان تقال هذه الاشياء في الوقت المناسب . لقد بدا الالمان كأنهم لا يُقهرون الى ان انهاروا . ولكن كذلك كان كليمانصو . لقد نطق امامي في وزارة الحرب بكلمات رددها بعد ذلك في مجلس النواب :

« سأقاتل امام باريس ؛ سأقاتل في باريس ؛ سأقاتل فيما وراء باريس . » *

وعلم الناس جميعا ان تلك الكلمات لم تكن تبجّحاً باطلا . ولتتحول باريس الى انقاض . . ان ذلك لا يؤثر على عزم كليمانصو . لقد عزم ان يقف على صمام السلام حتى ينتصر او ينهار عالمه باجمعه ويندك منه الاساس . لم يكن له امل وراء القبر ، وكان يسخر من الموت ؛ وكان في السابعة والسبعين من عمره . طوبى لامة تستطيع ان تجد ، حين يضطرب قدرها في الميزان ، مثل هذا المستبد ومثل هذا البطل .

وبعد النصر بدت فرنسا عديمة الوفاء في نظر الاجانب . لقد طرحت

---

* « سنقاتل في البحور والمحيطات ، سنقاتل بثقة متزايدة وبقوة نامية في الجو ، سندافع عن جزيرتنا مهما كان الثمن ، سنقاتل على الشواطىء ، سنقاتل في الموانىء ، سنقاتل في الحقول وفي الشوارع ، سنقاتل في التلال ، ولن نستسلم ابداً . »
ونستون تشرشل في مجلس العموم في ٤ حزيران ١٩٤٠

كليمانصو جانباً وعادت الى تخبطها القديم في السياسة الحزبية . مبدئيا لا يستطيع الانسان ان يلوم فرنسا ، ولكن كان بوسعهم ان يكونوا اكثر ذوقاً وادباً . كليمانصو السلم كان رجل دولة من الطراز الاول . واجهته صعاب هائلة فذللها وعقد لفرنسا اعظم صفقة يمكن ان يقبلها الحلفاء ، اي العالم حينذاك . لكن فرنسا غير راضية ، وفوش غير راضٍ . وظل كليمانصو الى النهاية غير تائب واستمرّ ينبح على الكنيسة . ومضت الرئاسة الى نكرة ظريف لم يلبث ان سقط من عربة قطار . وذهب النمر الى بيتـــه ، ليموت ، كما ظن الجميع . ولكنه عاش سنوات وسنوات في احسن عافية واعظم همة . وكان مستعداً في كل لحظة ان يقبض على الدفة ويقود السفينة . هذا كان شعوره بطبيعة الحال . وتدثّر برداء خالد من ماضيه ومن شهرته الواسعة ، متكبراً متشامخاً كابليس . « ماذا انت مزمع ان تصنع ؟ » — سألوه عندما عاد من رحلته الى الهند . « سأعيش حتى اموت . » أجاب في قسوة وعناد .

وكنت كلما زرت باريس في شأن عام ، أسعى الى كليمانصو مهما كانت الحكومة القائمة . قال لي يوماً : « اني لا أدعو احـداً الى هنا ولكن مرحباً بك أنى جئت . » وقال لابنته الكبرى في مناسبة من المناسبات : « المستر ونستون تشرشل بعيد جداً عن ان يكون عـــدواً لفرنسا . » وارتسمت في مخيلتي آخر صورة له قبل موته بنحو سنة . البيت المتواضع في شارع فرانسوا ، وغرفة صغيرة للمكتبة وللجلوس . انه الشتاء والغرفة لم تعرف الدفء . هناك مدفئة كبيرة ولكن تراكمت فيهـــا الكتب . لا نار هذه السنة ! وتمنيت لو احتفظت بمعطفي . وظهر الشيخ الكبير بقبعته العجيبة السوداء ، متدثراً بمعطف طويل وعلى يديه قفاز . ليس له شيء من جمال نابليون ، ولكن احسب ان فيه شيئاً من جلال الامبراطور في جزيرة القديسة هيلانة . وتراءت لي خلف صورة نابليون اشباح رومانية بعيدة . الضراوة ، والكبر ، والفقر بعد المنصب الخطير ، والعظمة حين

تجرد من السلطان ، والجبهة العالية تتحدى هذا العالم والعالم الآخر — كل ذلك من خصائص القدماء .

« المستر لويد جورج ، انه الآن عدو لفرنسا . لقد قال لي بنفسه ان الانكليز لا يصادقون فرنسا الا عندما تكون ضعيفة او في خطر . إني مستاء منه ، ولكن يسرني على كل حال انه كان هناك حين حدثت تلك الاحداث . »

وذكرت اسم رجل دولة فرنسي . « لا ؛ لا استطيع ان ابحث في السياسة الداخلية مع اجنبي . اعذرني ، فبعض الاسماء لا ألفظها . . تعال انئ شئت » - وعلى الباب « وداعا » .

دولة العرب

« خطاب لاديب اسحق ، وهو اديب سوري موهوب ولد في دمشق سنة ١٨٥٦ واشتغل بالصحافة والأدب في بيروت والقاهرة والاسكندرية وباريس . وكان ، في اصيل القرن التاسع عشر ، ركناً من اركان الأدب القومي الذي مهد تمهيداً مباشراً للحركة العربية . »

•

شعلة سرت من الحجاز فأنارت الشام ، والعراقين ، ومصر ، والمغرب والهند ، واتصلت باطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً ، فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس . ثم هبّت عليها عاصفة الفتنة ، ونكباء المحنة ، فلم يبق من ذلك النور غير شفق التصور في افق التذكر ؛ بل آية رسمتها يد القدرة في كتاب الايام ، فتلتها ألسن العزيمة على محفل الاقوام ، فدفعت جاهلية العرب الى الغارة على من اترفتهم النعمة من متمدنة الارض فسارت اسود رجالها ، على طيور خيولها ، تطوي الصحاري ، وتقطع الفدافد حتى نطحت بَرْوَقي عزمها شرفات الايوان ، ونسرت من الشرق نسر الرومان ، ونشرت على مصر اعلامها ، وضربت في الاندلس خيامها فلما عظمت دولتها ، واتسعت ثروتها ، تناوحت فيها رياح الخرافات فأطفأت نور علمها فصار ضياؤها ظلاماً ، وانغمست بماء النعيم فخمدت نار عرفها ولكن لم تكن برداً وسلاما . فمن رأى العرب مئات من الرجال يفتحون مصر الفراعنة ، وملك القياصرة ، وبلاد القساطلة ، وسلطنة الأكاسرة ، يُنكرهم إذ يراهم الوف الوف يقادون بخيط مما نسجت العنكبوت . ومن

سمعهم يقولون لاميرهم إن رأينا فيك عوجا قوّمناه بحد السيوف ، يعجب من رضاهم بفساد الاحكام ، وصبرهم على التواء الحكام . ومن وقف على شروح ابن رشد ، ومطالعات ابن سينا ، وخواطر ابن جبير ، وتقارير الغزّالي ، وابيات المعري ، يندهش إذ يلقاهم مقتصرين من العلم على ما لا يجلب خيراً ، ولا يدفع ضيراً ، يعقدون مذاهبهم فيه بالاوهام، او باضغاث الاحلام ، او ينيطون اسبابها بالسماء فيخطئون من حيث لا يريدون الاصابة ، ويصيبون من حيث لا يعلمون ، وينذهل إذ يجدهم راضين عن الكسلة المتراهبين ، والجهلة المتجاذبين ، يقبلون منهم أكفّاً لا تعرف الطهارة ، حتى صار الكسل عندهم من المعايش ، والخمول من المفاخر ، والجهل من الملاجيء ، والذهول من الكرامات ، كأن لم يبق فيهم من عالم عامل يبدد الاوهام ، ويبدي الحقيقة للافهام ، وكأن لم يكن بينهم من عابد فاضل يدفع البدع الشنيعة ، ويجلو حقيقة الشريعة ، وكأن لم يقم فيهم شجاع نبيه يسعى في ضم العصبة ولمّ الشمل ، وجمع الكلمة ، على اقامة امر العدل .

كلا ، والله ثم كلا ؛ انهم لا يعدمون عالماً ناصحاً ، ولا نزيهاً صادقاً ، ولا نبيهاً هماماً ، وانما اولئك نفر يمنعهم الخوف من الاقدام ، ويردعهم اليأس من الاهتمام .

ولكن لا خوف يا قوم ولا بأس ، وكيف تخافون ومنكم القائل : « لا يبعد من رزق ولا يقرّب من اجل ان يقول المرء حقاً » ، وكيف تيأسون وتاريخ آبائكم يقرّب الآمال ! ألستم في الارض التي افلتهم ؛ وتحت السماء التي اظلتهم ، او ليس ماؤكم هو الذي وردوه ، وهواؤكم هو الذي انتشقوه ، فما بالكم تعجزون عما استطاعوه ؟ أشاخت الارض فصار ما تنبت ضئيلاً ، لا يستطيع الى النمو سبيلا . وإلا فما للحجاز محجوز الانوار ، وما للشام مشئوم الاحوال ، وما لمصر مقرونة الطالع بالعسر ، وما للعراق مؤذن العز بالفراق ، وما لحلب متوالية النوَب ، وما لليمن فاقد اليُمن ، وما لتونس عديمة الأنس ، وما للغرب منهمل الغرب؟.

ألم يكن في كل هذه الاقطار نفر من اولي العزم تبعثهم الغيرة والحمية ، على جمع الكلمة العربية ، فيتلافون احوالها قبل التلف متظاهرين ، متوازرين كالبناء المرصوص او كصخور تلاحمت فصار ركامها جبلاً حصيناً لا تؤثر فيه العواصف ، ولا تضعضعه الزلازل .

بل ما ضرّ زعماء هذه الامة لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ثم حشدوا الى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون باصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد : قد جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وهبّت الحاصبة ، تليها العاصفة ، فذرت حقوقنا فصارت هباء منثوراً ، والمّت بنا القارعة ، ووقعت الواقعة ، فصرنا كأن لم نغنَ بالأمس ولم نكن شيئاً مذكوراً . فهلم ننشد الضالة ، ونطلب المنهوب ، لا نقوم في ذلك بامر فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن في الوطن اخوان تجمعنا جامعة اللسان ، فكلنا وان تعددت الافراد أنسان .

أيحسبون ان ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، ام يخافون ان يذهب ذلك الاجتهاد سدى ، ام لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزّهاً عن المقاصد الدينية منحصراً في العصبة الجنسية ، والوطنية ، مؤلفاً من اكثر النحل العربية يزلزل الدنيا اضطرابا ، ويستميل الدول جذبا وارهابا فتعود للعرب الضالة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون .

امير عربي

« من خطاب للأمير فيصل بن الحسين ارتجله في دار الحكومة بدمشق ، بعد رجوعه من اوربا ، في اجتماع وفود البلدان السورية في ٥ أيار ١٩١٩ . وخطاب الأمير ، وما دار فيه من حوار ، يعطي صورة حية عن (الشورى) الأصيلة عند العرب » .

•

اتشرف بان القي بعض كلمات على مسامعكم الكريمة . وهذه الكلمات ستكون تاريخية بالنسبة لحياة الامة العربية الجديدة في ماضيها واستقبالها . وقد دفعني الى الكلام اولاً — ان اكثر هؤلاء الكرام الذين اتشرف بمخاطبتهم مجتمعون هنا من كافة انحاء سورية . وقد أتوا الى بيروت لملاقاتي واداء التحية باسم جميع المواطنين الذين ينوبون عنهم ، وحضروا الى هنا ليسمعوا مني ما حصل في الغرب في مؤتمر السلام بخصوص بلاد العرب عامة وسورية خاصة . ولا شك في انني مكره على القاء هذه الكلمات لاطمئن اهل البلاد على بلادهم وعلى استقلالهم ، ولان اكثر الذوات لا يعرفون ما هي الحركة الثورية التي قامت في الحجاز وما هو السبب الدافع اليها .

ولا شك ان المسؤول في الحركة — اي الحركة الثورية العربية — هو اولاً والدي ثم الحجازيون مادةً ، الذين قاموا بها فعلاً . **اما السوريون فانهم مسؤولون عنها معنى لانهم قد شوّقوا الحجازيين لهذه الحركة .** فنرى والحمد لله ان الفخر وان كان اولاً للحجازيين فهو فخر للجميع ، لان هذه الثورة هي ثورة قومية لا يمكن ان نسندها الا الى الامة جمعاء .

نعم ، ان والدي قام بالثورة في اثناء النزاع العظيم الدنيوي بعد ما

راى ان الاتراك انقادوا الى التيار الالماني واوردوا الامة العثمانية موارد الهلاك ورأى ان دوام العرب في الحرب مع الاتراك المتحدين مع الالمان سيوقع البلاد التركية في ذات الموقع ، ورأى ان الامة العربية التي طالما تمنت الخروج من نير الاستعباد والنهوض الى ما كانت عليه في سابق التاريخ طامحة بانظارها الى الافلات من اشراك اعدائها لهذا قام بالحركة بعد ان اتيت الى سورية وقابلت بعض الرجال الذين منهم كثيرون في مجلسنا هذا سواء من البدو او من الحضر عقب مجيئي الى هنا ، ولا شك في انهم يذكرون ذلك .

ولما وصلت الى دمشق ورأيت ما رأيته من رجال الثورة رجعت الى الحجاز واخبرت والدي كيف انهم قاموا بواجبهم وعليه قام . ولكن تقدير الباري جعل السوريين في موقف لا يمكنهم من مؤازرة الحجاز بما قام به لاسباب تعلمونها وهو ضغط الاتراك عليهم وما اتوه من الافعال التي سيسطرها التاريخ ويخلد ذكر من قتل واستشهد في تلك الاثناء من السوريين باحرف ذهبية .

قام والدي وان الباري سبحانه وتعالى يسّر الامر فجلا الاتراك عن سورية كافة . ولا شك انه قبل ذلك اتى ببعض مذاكرات او معاهدات بينه وبين الامم المحالفة . واتكالاً على الباري سبحانه وتعالى ثم على العهود التي اخذها قام بالواجب الى ان انتهى الحرب وبدأ الصلح . ذهبت عن والدي الى باريس عقب جلاء الاتراك ولتنفيذ الخطط العسكرية في البلاد المحتلة . جعلت البلاد السورية مقسمة على ثلاث مناطق وهذا لتنفيذ الخطط العسكرية ليس إلا . واسست الحكومة العربية العسكرية في داخلية سورية وهي ليست حكومة دائمة . ولذلك ذهبت الى المؤتمر الذي انعقد في باريس لاخذ كل مستحق حقه . وصلت باريس ودخلت المؤتمر وجمعية الامم لبث رغائب الشعب على قدر اجتهادي وتمكنت من قول ما اريد . وعند ذهابي رأيت امم الغرب في حالة جهل عميق باحوال العرب . كانوا لا يعرفون

عن العرب الا ما كانوا يعرفونه عنهم في حكايات الف ليلة وليلة . كانوا يظنون العرب عبارة عن الامم السالفة العربية ولا يفكرون بوجود الامة العربية الحاضرة ولا يعرفون شيئاً عن الافكار السياسية والنهضة التي حصلت فيها . يفتكرون العرب هم عبارة عن عرب البادية الذين يسكنون الصحراء واما باقي سكان البلاد المعمورة فهم يعدونهم غير عرب ، ولا شك ان جهلهم هذا جعلني اصرف وقتاً طويلاً لافهم هذه الامم الحقيقة واثبت **ان العرب امة واحدة تقطن في البلاد التي تحدها البحار من الشرق والجنوب والغرب وتحدها جبال طوروس من الشمال .**

دافعت عن سورية بحدودها الطبيعية ، وقلت ان السوريين يطلبون استقلال بلادهم الطبيعية ولا يريدون ان يشاركهم فيه شريك وقد توفقنا والحمد لله . العراق بلاد مستقلة بلا علاقة بسورية ، كما ان سورية لا علاقة لها بسائر البلاد العربية . **مع ان العرب امة واحدة وكلنا يعلم ان المقاطعات العربية بالنسبة للتاريخ والجغرافية والصلات القومية هي بلاد واحدة ،** وان هذه المقاطعات تكون كمركها ومصالحها الاقتصادية موحدة لا حاجز يحجز المناسبات الودية والاقتصادية بينها .

انا الآن سأبدي في قولي عما يجب علينا عمله ولكن قبل كل شيء يلزمني ان ارجع ثانياً الى الماضي فاقول : ان الثوار قاموا ولم يستشيروا الامة لعدم مساعدة الوقت فحملوا المسئولية وعملوا ما عملوه حتى اليوم .

والآن ذكرت ما حصل في السابق الى تاريخنا هذا . واريد ممن حضر من ممثلي الامة الذين في حالتهم الحاضرة ليسوا ممثليها بالصورة الحقيقية ولكنهم بموقعهم الادبي يمثلون الامة تمثيلاً معنوياً ، اطلب منهم ان يصرحوا لي بافكارهم وان يقولوا لي هل ما قمنا به في السابق هو حسن ام لا ؟ (فاجيب الامير على سؤاله : حسن ، حسن !)

وهل هو موافق لرغائب الامة ام لا ؟ (فاجابه الحضور : موافق ، موافق ! مع عاصفة من التصفيق الحاد والهتاف الشديد) .

وهل اعمالنا هي مقرونة برضى الامة ام لا ؟ (فاجاب الجميع : نعم ، نعم وكل الرضى) وهذه اعمالنا في السابق ، ولكن بعد اليوم يجب على رجال الثورة او رجال الحكومة الحاضرة (قولوا ما شئتم) ان يظلوا سائرين باعمالهم لانا الى الآن ما تمكنا من تأسيس حكومة اساسية . ولكن بما ان الوقت قد ساعد واجتمعت هيئة الوفود فلا يمكنني ان ارجعهم قبل الاطلاع على افكارهم الخصوصية . هل يريدون ان نداوم على عملنا ام لا ؟ (الجواب : نداوم ، نداوم ، نداوم ، مع الهتاف) .

هل الامة معتمدة على من هو قائم بامورها ام لا ؟ (فاجابوه : معتمدة ، معتمدة ..)

ارجوكم الاصغاء لبعض كلمات تجول في خاطري . هل تسمح الامة بان ادير الحكومة مع السياسة الخارجية والداخلية بعد اليوم ام لا ؟ (نعم ، نعم — تصفيق حاد وهتاف بحياة الامير) .

اشكر هذه الهيئة واشكر هؤلاء الذوات على ما هم ناظرون اليّ به من الارتياح والطمأنينة ، ولكي ايضاً اجلب نظرهم الى مسئلة وهي : لا شك ان الوكيل او الشخص الذي يدافع في الحقوقيات لا يمكنه المدافعة عن حقوق مؤجلة الا اذا كان بيده وثائق تخوله ذلك ، كذلك السياسيون لا يمكنهم الدفاع عن الامة الا اذا كانوا حائزين على الشروط التي تمكنهم من العمل ، فالهيئة الحاضرة تسأل الامة هذا السؤال وتريد الاجابة عليه وهو :

هل الامة تؤيد كل اعمالي في الداخل والخارج قولاً وفعلاً ؟ وهل تساعدني باعطاء جميع ما اطلب منها بدون شرط ولا قيد ام لا ؟ (فاجيب : نعم لك الامر) .

هذا الذي اريد . لا شك ان هذه هي النقطة الاساسية التي تكون مستنداً للشخص وللذوات او للهيئة التي ستعمل لتدبير الشئون بعد اليوم الى حين انعقاد المؤتمر السوري الذي سينعقد في هذه الايام .

ولكن لكي اعمل الى ذلك الوقت يلزمني الاعتماد وقد طلبته منكم

واعطيتموني اياه وسأعمل . ارجو الباري سبحانه وتعالى ان يوفقنا الى ما فيه الخير ، واني اريد من الامة ان تنظر اليّ بالنظر السابق . وانتظر من الامة ان لا تغتر وتقول الامم اعطتنا استقلالنا فان اعتراف تلك الامم ما هو الا اعتراف معنوي **فلا نُعطى شيئاً الا ما نأخذه بأيدينا** . فالامر بيد الامة وعليها القيام . وان لم نقم واتبعنا الاهواء وقلنا نحن مستقلون وكل منا تقاعد عن واجبه الوطني فلا استقلال لنا .

اقول هذا لاني رأيت الامة عند قدومي قابلتني بكل ترحيب واريد ان الامة تؤيد اقوالها بأفعالها . هذا طلبي مختصراً جداً . ولعدم علمي بما سأطلبه لا يمكن ان اقول شيئاً . ولكن بعد ان احرزت ثقتكم ، ونلت اعتمادكم ، فعلى قدر ما أراه من الحاجة سأطلب من الامة ان تؤازرني .

اني اطلب من الجميع كبيراً او صغيراً ان يعتمدوا على الباري سبحانه وتعالى ثم على من هو منهم اي شخصي انا . لاني سأدافع عنهم وسأنظر اليهم على اختلاف اديانهم نظرة واحدة .

لا فرق عندي بينهم ، بل ارى الصالح والمتعلم مقدمين في نظري . اقسم على هذا بشرف آبائي واجدادي ، كما اني اطلب من الامة ان لا تنظر الى شخصياتها في المعاملات العامة . وليس لاحد منا ان يقول كنت كذا وكذا ، ناظراً لشأنه العائلي . بل لينظر كل منا الى النفع العام في جميع الامور التي يجب ان تقدم على المصالح الخاصة . ولا شك ان الشخص بذاته محترم عند الجميع ، ولكن العمل يجب ان يكون بالعلم فقد يكون الرجل وجيهاً في البلاد وهو غير قادر على ادارة وظيفة . فليعلم كل انسان اني لا انحزب لشخص لانه من عائلة او اسرة ذات شأن وقوة بل انظر الى اقتداره الشخصي لا الى مقامه الاجتماعي في الامة فاستخدمه في العمل الذي يليق به لان الحرمة الشخصية معنوية والعمل عائد للامة فلا يمكن ادخال الشخصيات في العموميات .

هذا وارجوكم رجاء خاصاً ادعوكم به الى الاتحاد وجمع الكلمة فهذه

وظيفة الامة لا وظيفتي الخاصة اذ انا فرد منكم ولا استقلال لكم الا اذ لزمتم السكون وعملتم بما يقوله من انتم معتمدوه .

هذه اقوالي وربما اطلت او اخطأت . ولو خطب في هذا الموقف غيري لتكلم الساعات الطوال ولكن عجزي يجعلني اقول : السلام عليكم .

عبقرية دمشق

« في الجلسة الاولى للمشاورات الخاصة بالوحدة العربية بين مصطفى النحاس رئيس الوزارة المصرية ، وسعدالله الجابري رئيس الوزارة السورية ، في تشرين الاول سنة ١٩٤٣ ، ادلى رجل الدولة السوري بوجهة نظر حكومته في بيان جامع نقتطف منه صفحة او صفحتين » :

●

لا غرور هناك ولا ادعاء ، وانما هناك حقيقة يؤيدها الواقع ؛ فالجيل الذي نشأنا فيه هو الذي حمل اعباء الدعوة العربية التي كانت دمشق مبعثها فلا تستطيع عمان او القدس او حلب ان تحل محلها . فدمشق هي التي حفظت الاسلام وصانت العربية ، وهي التي يخفق قلبها لكل عربي وتضطرب إذا لحق الأذى باي عربي او اسيء الى اي قطر من الاقطـــار العربية ، وفيها وجد الناطقون بالضاد دواماً ملجـأ لهم . وكل قضية عربية عامة تولد في دمشق وتنتشر منها .

فدمشق إذن لا تستطيع ان تتنازل عن مركزها . واني استلهم كلامي هذا من سببين عظيمين : الاول هو اتصال سوريا الوثيق بالقضية العربيـة من ناحيتها العامة ، والثاني كون القضية السورية تحتل مكاناً كبيراً – بل المكان الاول – بين الشؤون العربية بسبب تعدد وجوهها واختلاف عللها . ثم ان دمشق بالاضافة الى ذلك جمهورية وتودّ ان تحافظ على نظامها هـذا لانها تعتقد فيه الخير لها وللعرب ، ولانه عنصر سلام بين البلاد العربية .

وكما ان رفعتكم صريح وتحبون الصراحة فاني اريد ان اكون كذلك

صريحاً فاقول ان دمشق تحرص على الاحتفاظ بمكانتها التي استحقتها بطبيعتها وبتاريخها ، وانها لا ترضى عن نظامها الجمهوري بديلاً .

ودمشق تقرّ امرين : الاول انها حريصة على اقامة احسن الروابط بينها وبين البلاد العربية وان تكون هذه الروابط على احسنها بين جميع البلاد العربية كذلك . وهي لن تكون سبباً لاي خلاف بين بلد وآخر. والثاني انها تعترف وتسلم بزعامة مصر راضيةً مختارة . وهي لا تقول ذلك اعتباطاً ، بل نتيجة تفكير عميق ودراسة للواقع ، فان وراء مصر تاريخاً من الجهاد القومي ساعدها على تركيز كيانها ، فقد ثارت في زمن محمد علي باشا وحصلت على استقلال كوّنها اجتماعياً وثقافياً وان طرأت عليها بعض التقلبات السياسية . وقد نشأ فيها رجال يستطيعون ان يتولوا توجيه القضية العربية بما لديهم من مزايا ووسائل وبما تتمتع به مصر من انسجام بين اهلها ، وذلك علاوة على الثروة والعدد والحضارة ، وهذه كلها عناصر قوة تتميز بها مصر .

ولقد اغتبطت دمشق حين وقفتم رفعتكم في مجلس الشيوخ واعلنتم خطتكم تعقيباً على ما قاله المستر ايدن في بيانه المشهور عن اتحاد الدول العربية . وهذه امنية كانت تشتمل عليها القلوب في الشام ، فاصبحنا عندما رأينا امكان تحقيقها نحسب اننا في حلم .

فسوريا مستعدة للسير وراء مصر وبذل كل تضحية في سبيل القضية العربية التي تتمنى لها كل نجاح . ولهذا الموقف ايضاً دافع داخلي فانسوريا تريد ان تربط مصيرها بمصير البلدان العربية الاخرى وما كانت العقبات مهما بلغت لتحول دون سعينا لبلوغ الغاية .

ان سوريا تعالج مشاكل مستقلة عن سائر البلاد العربية . واني لاخشى من بقاء سورية في معزل عن البلاد العربية لا تربطها رابطة ما ، فتزول بذلك عناصر الوحدة ، ويهدد ذلك كيان سورية ومصيرها ويعرض تقاليدها ولغتها للاخطار . وهذه الحقيقة المرة هي التي تدفعني واخواني الى العمل

بجد واجتهاد على ربط مصير سورية بمصير اخواتها ضماناً لمستقبلها . ومهما كان ذلك المصير فانه افضل لها من ان تكون في عزلة عن شقيقاتها .

واستطيع ان اؤكد ان هذه الهيئة الماثلة امام رفعتكم تمثل الشعب السوري وتشعر بشعور ديموقراطي صحيح وترغب كل الرغبة في ان تأخذوا بيدكم اللواء وتسيروا في الوجهة التي تريدونها .

ملحق

الوطنيـــة العربية

(اهدافها ووسائلها)

« هذه محاضرة القاها صاحبها في مؤتمر الطلاب العرب المنعقد في لندن صيف ١٩٤٦ ، وهي لا تؤلف جزءاً اساسياً من الكتاب وانما رُئي اثباتها فيه على علاتها لان هذا الكتاب موجه بالدرجة الاولى الى الطلاب الناشئين ، وقد يسر الطلاب ان يطالعوا ما كتب طالب مثلهم احب ان يحدد موقفه من قضايا امته وهو يودع عهد الدراسة ويستقبل الحياة العامة . »

•

هذا الجيل من العرب

منذ ثلاثة عشر قرناً انشأ اجدادنا في البلاد الممتدة بين مراكش والعراق ملكاً قائماً على ان الله واحد وان العرب امة ممتازة أُخرجت للناس وحمّلت رسالة السماء . ثم زال الملك العربي وبقيت بعض اصوله من ارض وشعب ولغة واخلاق وتشريع ، تخفي وراءها جميعاً عبقرية فذة انكمشت بعد انطلاق وانسابت تستجمّ في الخفاء وتتهيأ للوثوب . وقد اختارنا القدر لنشهد ولادة هذه الأمة من جديد ولبعثها مرة اخرى .

من الجاهلية الاولى خرج جيل من العرب عجيب — جيل نبوة وهدى وبطولة ونبوغ ، فهل تتيح العناية في هذه اللحظة التاريخية جيلًا آخر من الطراز الاول يصوغ مبادىء الحياة العربيـــة ويمس النفوس بلهب قدسي فتنزع للمجد والمروءات ! المشاهد كبيرة والحوادث جمة ولا عذر للرجال

إن غدا الرجالُ صغار النفوس .

ونحن المغتربين عن اوطاننا في طلب العلم ، اجتمعنا ههنا لنعطي معنى لاغترابنا ولنضرب اللحن الذي تجرى على ايقاعه حياتنا المستقبلة . لذلك نرى مناسباً ان ننظر في سير قدرنا ومصير قومنا ، والظروفُ مؤاتيـــة للنظر الصائب والرأي الجريء . فالعـدد الاكبر منـا ما زال في فجر الشباب وفي مجده – ذلك العمر الذي يفكر فيه المرء ، ويحلم ، ويتنبأ معاً ؛ ويجد في يقظة العقل ، ونشاط الخيـــال ، ونخوة الجسد ، شروط الخلق والابداع . ثم انا في اجوائنا الجامعية الهادئة بعيدون عن ضرورات الحياة العملية وتفاصيلها ، لم يعلق بنا غبار السياسة ولا صخب الميدان . لم نخضع للواقع بعد فنحن نفكر بالمستحيل او بتوسيع حـدود الامكان إذ لا مستحيل . قد نستطيع إذن ان نعبر عن الضمير العربي كما يستيقظ في صدور هذا الجيل من العرب ، نقياً مرهفاً كسيف خالد بن الوليد .

والمتكلم في جمعكم هذا يسعده ان يكون صوتـاً خافتـاً من اصوات هذا الجيل في المؤتمر ، معبراً عن بعض ما يجول في اعماق الضمير ، فقد اتيح له في ظلال جامعة بيروت ، وفي اروقة اكسفورد القديمـة ، وفي هذه الجزيرة الخضراء ، ان يجتمع بفئات ممتازة من الشباب من شتى اقطار العرب وان يتعرف بواسطتهم الى بعض اسرار الذات العربية ، الى نزعات الوجدان العربي في ازمته التاريخية ، الى الالم العبقري والرؤى الكبيرة ، الى الضيق المتمرد ، الى الطموح الذي لا حد له . فان جاء بمـا يجوز قبولـكم ويظفر بالرضا فذلك رجع الصدى وفضله عائد اليكم ، وان اخطأ او قصر او اساء فهو وحده الذي يحمل مسؤولية ذلك .

جامعة الدول العربية في السياسة الدولية

يتناول هذا الموضوع السياسي اوضاعاً قومية واوضاعاً دولية في تغـير دائم وتقلب مستمر ، وانا لست سفيراً ولا رجل دولة . ومعنى ذلك من جهة ان هناك معلومات كثيرة وأموراً خفية متوفرة لرجال الدول العربيـــة

والسفراء ليست في متناول يدي وقد تكون وراء حدود الظن . ومعناه من جهة اخرى ان الاعتبارات والملابسات والظروف التي يضطر الى مراعاتها واحترامها الساسة المسؤولون ، اجد نفسي مطلق الحرية ازاءها ، متمتعاً بتلك الحصانة التي يمنحها الخمول للنكرات من الناس فيقولون ما لا يقال .

وان كنت لا اعالج هذا الموضوع كسياسي يعلم كثيراً ويتحفظ اكثر مما يعلم ، فاني اعيذكم ان تنظروا الى هذه المحاضرة على انها قطعة انشائية من عبث الطلاب . اخوض هذا الحديث كمواطن عربي مسؤول ، معتقداً ان السياسة القومية الصحيحة هي التي شارك في اخراجها وساعد على دعمها مواطنون احرار متنورون . فالسياسة الكبيرة لا تنشأ في فراغ كبير او في حجرة الوزير وانما تولد في جو من النقاش القومي يستوحيه رجل الدولة ليضع سياسة للدولة . في مؤتمرات الاحزاب وعلى اعواد المنابر ، وفي النوادي السياسية والمجتمعات وعلى صفحات الجرائد والمجلات يتهيأ جو مناسب لتولد سياسة ما . وهذا النقاش العام ، يساهم فيه الحكام والرعية يساعد الوزير المختص مرتين : يساعده اولاً على الاحاطة باطراف الموضوع المطروح للبحث ، والاحاطة لا تتهيأ دائماً للوزير العبقري إذا ما اقتصر على عبقريته ، هذا والعبقريون من فلتات الزمان . ويساعده النقاش ثانياً على معرفة موقف الرأي العام من نحو معين في تصريف الشؤون ومدى استعداد الناس لذلك النحو . فلا يجوز لرجل الدولة ، ولا يجيز الرجل لنفسه ، ان يتقدم على مجموع الامة كثيراً او ان يتأخر عنها كثيراً . والرأي وحسن الدراية وكل الحكمة في اعتدال الميزان .

ثم اني اخوض هذا الحديث كمواطن عربي ليس من شأنه ان يقرر سياسة جامعة الدول العربية لسنة او لسنتين او لعشر سنين ، وانما يهمه ان يعلم الغاية التي تجري اليها الامة العربية في توثبها الجديد ، وان يلم بالعناصر الاولية ، الثابتة نسبياً ، في الوضع الدولي بعد الحرب ، وان يرسل على ضوء هذه وتلك خطوطاً كبرى لسياسة العرب او ان يشير الى

اتجاه عام يحسن بالجامعة ان تتوخاه .

هذا ولو تركنا العالم وشأننا لانصرفنا في السنوات القادمة بكليتنا الى الجهاد الداخلي ، لان السياسة الخارجية لدولة ما لها اصلٌ تبني عليه وذلك الاصل هو كيان الدولة العضوي وتماسك اجزائها وقوة نظمها ومناعتها الأدبية وشهرة حضارتها بين الناس . لكنا ، والامر ما تعلمون ، مضطرون الى الكفاح على جبهتين والحرب واحدة والنصر غير مجزأ .

ماذا يريد العرب

العرب امة عريقة لها شخصية قومية متميزة عن سائر الاقوام ، لغتها نسيج وحدها ، ونظرتها خاصة الى الناس والاشياء ، ولها في التاريخ نهج فريد . والامة التي فاض عنها في الماضي البعيد نور كثير وحضارة كبرى تريد ان ينجلي عنها صدأ القرون فتتفتح مواهبها وتنطلق عبقريتها وتتخذ طريقها في الحياة كريمة ، ألمعيةً ، عرباء .

العرب في يقظتهم هذه لا يتطلعون الى ما وراء الحدود ولا يطمعون في فتح جديد ، بل جلّ ما يبتغونه هو ان يدعهم العالم احراراً في الارض التي عربها اجدادهم ومهروها بطابعهم النبيل الى الابد — من خليج فارس الى جبل طارق ومن اعالي الفرات الى اقاصي اليمن — هذه الارض هي الوطن القومي والقاعدة المادية لحياتهم ، والشعوب والقبائل المتناثرة عليها الناطقة بلغة قريش تؤلف وحدة ثقافية في مجموعة البشر .

إنا ، وقد وعينا تاريخنا واكتشفنا الامة التي اضعناها وهي معنا ، لنحرص اشد الحرص على صون شخصيتنا القومية ، على نموها المطرد وتدرج احوالها في مراتب الكمال . وحرصنا هذا طبيعي ومشروع وضمن مرامي الأله في الكون — طبيعي ، لاننا احياء والكائن الحي مدفوع بمنطق الغريزة الى التمسك بالبقاء والى تحسين البقاء .

مشروع ، لانا نعتقد بان النبوغ العربي يزيد خصب الحياة الانسانية ويضيف الى حكمة الارض وجمالها والخير فيها ، وينحو في اكتشاف

حقائق الكون نحواً خاصاً لا تستغني عنه الانسانية ان ارادت الحقيقة كاملة.

ضمن مرامي الاله ، لانا نحترم ارادة السماء ونؤمن بان الامة العربية لم تخرج للناس عبثاً منذ الاصل ، وانها ان لم تندثر عقب انتفاضتها الاولى كما اندثرت امم كثيرة من قبل ومن بعد فلأمر يراد .

فمن ناحية نرى اننا نختلفون عن سائر الامم والاختلاف ظاهر في حضارتنا الاولى المتميزة بالدين والتشريع والادب والاخلاق ، وهو باد ايضاً في طريقة حياتنا الحالية على ضعفها وفوضاها . إذ لو نظرنا نظرة عميقة شاملة الى الحياة العربية خلال العصور لوجدنا ان هناك مُثلاً في الحياة كانت في الجاهلية ، واستمرت بعد الاسلام ، وما تزال في وعينا وفي لاوعينا مثلا عليا ، وان لم نوفق الى ممارستها جميعاً بسبب ما اصاب نفوسنا من ضعف وانحلال . بدت تلك المثل في الجاهلية شعراً ونخوة وثأراً وعنعنات ، وفي فجر الاسلام ايماناً وجهاداً وفتحاً ومكرمات ، وكذلك في الضحى ، الى ان غرقت بعد الضحى وجرت في تيار خفي عميق ، بطيء هنا ، شديد هناك ، ينخفض طويلا ويتجمع شيئاً ، ثم يعلو في موجة كبرى يركبها فيصل العظيم ليفتح الشام . فما هي تلك المثل العربية التي تشير الى وحدة تاريخنا والى ذات عربية تشب وتغفو ، وتغور وتبدو وتنقلب مع الزمان وتبقى ذاتاً قديمة حديثة عرباء !

نحن العرب

« نعبد الله ، ونؤاخي الانسان ، ونكرم ضيفنا ، ونرعى جارنا ، ونصون اعراضنا ، ونفي بالعهد ؛ نسرع الى النجدة ونخاف العار ، ونعد القتل اشرف الموت ؛ نحترم العلم والعلماء ، ونقدم رجال الفضل والكرامة ونطيع اولي الامر منا في الحق ؛ نحب البلاغة والحكمة وسوانح الادب ، ونتخذ الشعراء واصحاب البيان ندماء سمرنا وزينة المجالس . لنا افتتان بالعلى ، وشغف بالندى ، وتسابق الى الغايات وسبق في المروءات . »

لا تحسبوا ، ايها السادة ، تعريفي للعرب نثر شاعر او سجع خطيب ،

فوراء كل كلمة تقليد طويل ولكل عبارة اصل في ديوان العرب اصيل ، وإذا كان المقام لا يتسع للوقوف عند كل فكرة وصورة لشرحها وردها الى اصولها ومتابعة تاريخها في شتى العصور فاني ذاكر على سبيل المثال تقليداً واحداً ليس بين الفضائل العليا وانما اخترته لغرض في نفس يعقوب – اعني « موت القتل » . مهما يكن رأيكم في تفاخر العرب بالموت قتلاً وخوفهم من عار الموت على الفراش فهو تقليد عربي قديم يطالعنا في ادب الجاهلية عامة وفي شعر السادة من العرب على الخصوص ، وكلكم يذكر افتخار السموأل بقومه – « وما مات منا سيد حتف انفه .... »

وجاء الاسلام فما انقرض تقليد الجاهلية وانما اكتسب معنى اسمى واصبح الموت في الجهاد شهادة لها الشرف في الارض والاجر في السماء . وهذا عليّ ، ومن في الايمان مثل علي ، يقول : اكرم الموت القتل . وخالد ابن الوليد يروعه ان يموت على الفراش ، بعد ان ملأ الدنيا جهاداً ، فيصرخ : لا نامت اعين الجبناء . واستمر هذا التقليد في شعرنا وخيالنا موضع اعجاب ان لم يكن موضع محاكاة . وما زال البدو من العرب ، وهم الحفظة لكثير من التقاليد العربية الاولى ، ينظرون الى موت القتل نظرة السموأل وعلي فيقولون عمن سقط في الميدان بلهجة اكبار « قتل فلان » وعندهم لمن ذاب على فراشه تعبير يحمل من معاني التحقير والازدراء ما لا يحسن ترديده على المسامع .

وقد يكون من الخير بعد ان اعطيت مثلا من عادات التفكير والاحساس ان انحدر الى ايسر الآداب وادلل على ان الاسلوب العربي في الحياة وارد وشامل للحياة – اذهب انيّ شئت في بلاد العرب ، حاضرة وبادية، وعوضاً عن ان تحني رأسك كمن يهم بنطح او ان تنفض ساعدك في حركة بربرية ارفع يدك برفق الى اعلى الجبين وقل بلهجة عربية سمحاء : « السلام عليكم » تلق رداً اكرم لتحية كريمة .

بلى ، ان للعرب خلقاً وحفاظاً ، ان لهم طريقة في الحياة جديرة بالبقاء

خليقة بالانتشار . ان احتاجت الى اضافة وتكييف او صقـــل وتهذيب فكذلك تقتضي طبيعة الاشياء وتطلّع الانسان الدائم الى ما هو افضل واسمى.

العرب بين الامم

لكنا الى جانب نظرتنا القومية واعتقادنا باننا امة متميزة عن سائر الامم نؤمن بوحدانية الله ووحدة البشر ، ونعدّ كل شعب من شعوب الارض كتيبة خرساء في الجند العالمي ، والجند كلـه في نضال مستمر مع قوى الطبيعة وفي تشوق دائم الى المجهول وفي محاولة جبارة مفجعة لاسعـــاد الانسان على الارض وتجميل حياته وتزيينها بالكمال . في النضال المجيـد الرهيب ، في مآسي الانسانية وانتصاراتها يطمح العرب الى مكان الشرف بين الكتائب .

او قل اننا ننظر الى هذه الارض التي اورثنا الله على انها بستان فيه الزرع والزهر والظل والعبير . هنا سنديانة قديمة ، هنـاك ارزة نبيلة ، وهناك وردة حمراء ، والى اليمين بساط من العشب اخضر ، والى اليسار حقل من الياسمين ، والامة العربية بين نبات الارض نخلة كريمة . (اخترت النخلة نظراً لمكانتها الخاصة في حياة العرب ، او لم يقل ابو العلاء :

وردنا ماء دجلة خير ماء وزرنا اكرم الشجر النخيلا)

افتستطيع النخلة ان تكون غير النخيل ؟ او ليس في ارتفاع النخلة وظلها وجناها اضافة الى ثمر البستان وجمال المكان ؟ هل من مصلحة النخلة ان يجف سائر النبات وتتحول الجنة الى صحراء وتبقى النخلة لتندب وحدتها في الفراغ القاتل ؟ او هل من فائدة البستان ان تتحول النخلة الى قصب او تغدو حطباً وتحرم الارض من الرطب وجذع النخيل ؟ دعوا النخلة بين الورود وبين الشجر تأخذ من ماء الارض والهواء ، دعوها تنمو تحت الشمس وترتفع وتعطي الثمار وتعطي الظلال ، لتغنى بهـا الارض وتزداد بهجـــة البستان .

واذا تركنا الاستعارة والتشبيه فسياسة العرب التي تفرضها مصلحتهم المنسجمة مع خير الانسانية جمعاء ، المستوحاة من ايمانهم بالله ونظرتهم الى الحياة والناس ، تتلخص في هدفين :

اولاً : حرية العرب المطلقة في تكوين دولتهم القومية كشرط اولي لنمو شخصيتهم وتكاملها على طريقتهم .

ثانياً : السلام بين شعوب الارض جميعاً – سلام قائم على المساواة الحقيقية وتبادل المنافع والخدمات والمشاركة في الحضارة الانسانية الجامعة .

وبديهي اننا لا يمكن ان نلعب دوراً هاماً في السياسة الدولية وفي نشر العدل وتوطيد السلام ما لم يتحقق الهدف الاول كشرط للهدف الثاني سابق عليه . ثم ان تحقيق الغرض السابق متوقف الى حد ما على سياسة خارجية حكيمة . وان كان الفصل غير ممكن في الزمان فلنجعل سياستنا ، لمقتضى البحث ، على مرحلتين :

المرحلة الاولى

في المرحلة الاولى نعمل على استقلال الاقطار العربية جمعاء ، ولا يجوز ان نعتبر عملية التحرير منتهية ما دام ذراع واحد من الارض العربية تحتله سلطة اجنبية – لا استثني من ذلك بيت المقدس ولا انطاكية ولا طرابلس ولا عدن ولا البحرين .

والبلاد العربية من ناحية الاستقلال السياسي ثلاث فئات :

١ – فئة مستقلة كالحجاز وسوريا

٢ – فئة تستكمل استقلالها كمصر والعراق

٣ – فئة ثالثة لا يظهر انها ستتحرر في القريب كمستعمرات الشمال الافريقي ومحميات الخليج .

اقول لن نعتبر عملية التحرير قد انتهت ما لم يصبح العرب السلطة الوحيدة في بلاد العرب .

ولما كان العرب لا يستطيعون الآن ان يجرروا اجزاء الوطن العربي كله

بالقوة والقهر فلا بد من التجائهم الى الكيد والدهاء ومن مزجهم بين طرق العنف واساليب اللين لتتحقق لهم الحرية والوحدة وما وراءهما . ومما يتيح للدول المستضعفة ان تنال بعض غاياتها بالدهاء هو ان العالم غير خاضع لدولة واحدة كبرى وان هناك شيئاً كالتوازن في القوى بين كبريات الدول ، والعرب واجدون في اضطراب الميزان مكاناً لهم ومجالاً للعمل السياسي الى جانب النشاط المسلح الذي قد تقتضيه الظروف بين حين وآخر في هذا البلد او في ذاك من بلدان الشرق العربي .

لكن التحرر السياسي او مجرد الخلاص من احتلال عسكري لا يضمن حرية الامة ولا يضع مصير العرب نهائياً في يد العرب ولا يجعل لهم من نفسه كرامة بين الامم . ان صرح الدولة يقوم على اقتصاد صحيح واجتماع سليم ، لذلك كان لزاماً علينا ان نعيد النظر في نظمنا واساليبنا وفي نسيج الحياة العربية على العموم . ولما كان البحث في الاقتصاد والاجتماع والثقافة خارجاً عن نطاق هذه المحاضرة ، رغم ان السياسة تحتضن المؤسسات جميعاً وتتوجها بوحدة الدولة ، فاني مقتصر على ملاحظات سريعة تخدم اغراض الحديث :

١ ـ ان بناء مجتمع عربي جديد يتطلب وجود نظرة الى الحياة شاملة عامة تنحدر منها النظم والقوانين متناسقة متكاملة .

٢ ـ ان هذه الفلسفة العربية المرجوة ، او النظرة العميقة الواعية الجامعة ، يجب ان تنبعث من اعماق الوجدان العربي وتصاغ ضمن التقليد العربي الاصيل و'ينظر في تطبيقها الى مزاج الامة وظروفها وحاجاتها .

٣ ـ 'يفهم مما تقدم انه لا يصح ان يتبنى العرب فلسفة صادرة عن حياة اجتماعية اخرى او تقليد قومي غريب . فنحن اذا حاولنا ذلك لا نكون مخلصين لألاهنا ، امناء لعبقريتنا او نافعين للعالم . ولن ينتج من محاولتنا سوى انحراف في طبائعنا ومسخ لشخصيتنا وتشويه لثقافات الآخرين .

ليعلم العرب وكل الناس ان رسالة العرب في الوجود وشرف كيانهم

ان يكونوا عرباً ـ ان ينتجوا فنا عربياً ، وادباً عربياً ، وفكراً عربيا ، واسلوباً في الحياة عربياً ، وان يقدموا للنماذج الانسانية شخصية « السيد العربي » .

نقول هذا ونحن ندرك جيداً ضرورة الاطلاع على آداب الامم جميعاً وحضارات الشعوب ، وليس ادل على صدق رغبتنا واتساع افقنا من وجود هذا الحشد الكبير من الطلاب في جامعات بريطانيا . وانا لنذهب ابعد من ذلك فنزعم ان العرب لا يعذرون اذا لم يلموا بجميع المعارف الانسانية ويفهموا التيارات الفكرية التي تحرك العالم ويأخذوا باحدث وسائل العلم والانتاج واحكام الاعمال . لكنا لا نقبل مطلقاً موقف من يفترض ان العالم العربي فراغ كبير يجب ان تملأه الحضارة الغربية ، والحضارة الغربية تارة ثقافة غرب اوروبا وتارة ذلك المزيج العجيب من غرب اوروبا وشرقها . كما انا نرفض اجتهاد من يدعو المؤسسات الاجنبية الى النشاط او التوسع في بلادنا ، ونرى ان الامر من الخطورة بحيث ينبغي الاسراع الى وضع سياسة ثقافية واضحة تقوم على القواعد التالية :

١ ـ في البلاد العربية تراث ثقافي مهما كانت شوائبه والصدأ الذي غشيه ، ومهما كان الشك في ملاءمته لزماننا وحاجات عصرنا فهو الارث الذي حفظ كياننا كأمة ويجب ان يكون من مقومات حياتنا الجديدة .

٢ ـ اعتبار العلم والفلسفة والآداب والفنون التي ارتقت الى مستوى عالمي واشتملت على عناصر كلية خالدة ، وقفاً على الانسانية جمعاء فنحن نتمثلها ونغذي ثقافتنا بها .

٣ ـ عدم التعصب لثقافة اعجمية دون اخرى لان لكل ثقافة عبقرية خاصة . فيجب ان نرحب بالثقافات جميعاً ونأخذ من كل واحدة بمقدار الحق الذي فيها ، والجمال المنبعث منها ، والخير الناتج عنها . ومثل ذلك في الفكر السياسية والتطبيقات . ان النظرية او الطريقة التي تطورت مع الامتين ، البريطانية والاميركية ، في الحكم تضمن حرية الرأي وحرية

العمل ، بينما ان النظرية او الطريقة السوفيتية تضمن التحرر من العوز والهوان . المشكلة الازلية في السياسة والاجتماع لم يوفق احد بعد الى حل نهائي او مرضٍ لها ، وانما خطا البريطانيون في حلها خطوة وخطا الروس اخرى ، ولا يجوز للعرب في اصلاح مجتمعهم ان يفوتهم مثال الروس او اختبار الانكلوسكسون ـ هؤلاء صانوا الحرية السياسية واولئك حققوا الحرية الاقتصادية ، ولا مساواة بين الناس ولا كرامة للانسان بدون الحريتين .

٤ ـ ان عملية تثقيف المجتمع العربي يشرف عليها العرب انفسهم ـ اولاً ، لان العملية يجب ان تكون طبقاً لسياسة ثقافية يضعها العرب ، اذ لا يجوز ان نترك تربية الاجيال الصاعدة والاخلاق والولاء عرضة للصدف ولمختلف الآراء والاهواء . ثانياً ، لانا نأبى ان نظل عيالاً على غيرنا في امر حيوي من شأننا . ثالثاً ، لان كل ما يرجى من نشاط المؤسسات الاجنبية في بلادنا يمكن الحصول عليه بطريقة فاضلة تجنبنا سيئات الطرق الاخرى وعارها وذلك ان تستدعي المعاهد العربية الاساتذة الاجانب الذين تحتاجهم وتحدد لهم عملهم وتقطعهم عليه اجراً كما تفعل جامعة فؤاد وجامعة فاروق . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى تزداد البعثات وتكثر الرحلات الى الغرب في طلب العلم ، وتقصد كل بلد وكل جامعة فذة في حقل من حقول النشاط العقلي .

لقد ضربت تركيا في هذا الباب مثالاً عالياً في احترام النفس والتدبير . ولا اعلم امة في الشرق كله حققت من التقدم الثقافي في ربع القرن الاخير ما حققت تركيا بين الحربين . فقد قبضت الحكومة الكمالية منذ البدء على ناصية التعليم وخلقت جيلاً حديثاً وطنياً عزيزاً ، بينما ان البلاد التي وقعت تحت الانتداب تخلفت عن تركيا مراحل .

وما قلناه في نشر الثقافة نردده بصدد الادارة والصنائع والضبط الفني في الاعمال . فان احتجنا الى خبراء اجانب فلنستقدمهم مأجورين مأمورين ، والاولى ان نفتش عنهم في الدول الصغيرة ، الراقية حقاً ، كبلجيكا

وسويسرا والبلاد السكاندنافية ، فان لم يتوفروا هناك فليقبلوا من كل افق ولتكن القاعدة العامة في جميع علاقاتنا مع الدول حفظ التوازن بينها حتى في القروض وفي الاعارة .

العصبية العربية

ولكن مالي اغرق في التفاصيل واهمل الاصل وانسى الاساس ! اين نقطة الابتداء في السعي القومي الشامل ؟ اين المحور الذي يدور عليه جهاد العرب في الحرية والاستقلال ؟ اين النواة التي تتجمع حولها الاقطار العربية لتؤلف دولة العرب ؟ اين الاسطورة التي تلهب خيال الناس وتثير النخوة في الصدور وتدفع الى اعمال البطولة والاستشهاد ؟ اين الضابط الجامع لمختلف نواحي النشاط في الثقافة والاجتماع والسياسة والاقتصاد ؟ اين المبدأ العام الذي يطبع نتاج العرب بطابعه القوي النبيل ؟ اقرب شيء الى الجواب عبارة منتزعة من مقدمة ابن خلدون ، والجواب يسير : « عصبية عربية » .

بالعصبية العربية يكون التمهيد لدولة العرب واقامة صرحها وحمايتها . والانتظام في عصبية عربية كبرى هو الشرط الذي لا بد منه لتحقيق اغراض الحياة العربية كما قدمنا في هذا الحديث . والعصبية العربية تتضمن :

١ – اعتناق العقل للفكرة العربية .

٢ – تعلق القلب بالاساطير العربية والتقاليد والاخبار .

٣ – نزوع النفس الى مستحيل عربي او مطلب صعب كالمستحيل .

٤ – توجه الارادة الى تحقيق ذلك كله على نهج عربي كريم .

ويحصل من مجموع هذي المعاني صلة قوية كالحياة نفسها بين الفرد وبين تلك الذات المعنوية الخالدة التي كانت قبل العروش القائمة والنظم والدساتير والتي ستكون الى آخر الدهر . **العصبية العربية معناها حب القوم والولاء لامة العرب .**

ويؤسفنا أن نلاحظ ان هذه الفكرة الاساسية على بساطتها واهميتها ليست واضحة في اذهان الجميع . فما زلنا نسمع رجالاً من الصف الاول

في الميدان يتكلمون عن «امم عربية» كـــأن للعرب اكثر من شخصية قومية واحدة . بينما نجد آخرين يعتبرون جامعة الدول العربيـة سياسة ومصلحة لا مبدأ حياة . وسبب هذه الفوضى في التفكـــير وفي الولاء تاريخي يرجع الى وجود ثلاثة اجيال ، او ثلاث عقليات ، بين الاحيـاء من العرب .

اولاً — جيل نشأ في ظل الدولة العلية وأخـــذ بعصبية عثمانيـــة فيها معنى طاعة المؤمن للخليفة وفيها خوف المحكوم من السلطان . وان خرج من ذلك الجيل احرار ثاروا على الولاء القديم فهم اقلية ممتازة واقل من القليل من برىء من اثر المدرسة التركية ومن افـكار العالم القديم .

ثانياً — جيل نشأ في ظل عصائب شتى واتصل ولاؤه بشخصية فـذة او عرش او دستور او وضع خاص ، وحمل جنسيات مختلفة وجعلت له اعلام وضربت نقود ونصبت حدود ، وتعوّد ان يفكر اولاً انـه مصري او عراقي او سوري .

ثالثاً — جيل افـــاقَ على ثورة الحسين ووعى دروس التاريخ بـين حربين فاتجه نحو الوحدة العربية بفكره وظلت الاوضاع المختلفة في الاقطار تتقاسم ولاءه وتحجب عنه جلال الرؤيا .

ألا إنه ينبغي ان يرسخ في اذهان الجميع ان العرب امة واحدة وان شخصيتها الخالدة هي موضع الولاء القومي الذي يسمو على سائر الولاء . فنحن سوريون ومصريون ، عراقيون وحجازيون ضمن الاسرة العربية لكننا إذا خرجنا من بيت الاسرة واخذنا مكاننا بين الامم فالعروبة مميزنا القومي وهي النسب الصحيح إذا انتسبنا .

ولا يعني هذا القضاء على العصبيات الثانوية والوطنيات المحلية والوفـــاء الجميل لمرابع الصبا ومضاجع الجـدود . فمن الطبيعي ان يكون في قلب المصري مكانة فريدة لوادي النيل كما في قلب اللبناني حب عميق لتقاليـد الجبل . هذه الوطنيات جميلة ، نبيلة ، وحبلى بخير كثير إذا هي وضعت

في مواضعها من مراتب الولاء . والامة العربية يسعدها ان تجد ضمن وحدتها تعدداً واختلافاً يزيد في خصب الحياة العربية . فلكل بلد عربي عبقرية محلية خاصة يجب ان تحتضنها الدولة العربية وتفسح لها مجالاً وتعنى بها . اعظِمْ بدولة يجتمع لها دهاء الشام ومجد مصر ونخوة العراق وجمال لبنان وقدسية الحجاز وجلال القدس وفتوة المغرب وخضرة اليمن . والله لو جمعت كلمة العرب على امر كما أُلّفت من قبل على الاسلام لحملنا الدنيا على راحاتنا قبل ان يختلف على الارض مئة ربيع .

ولكي تستتبع العصبية الكبرى سائر العصائب ، وتنتظم العبقرية العامة جميع المواهب فلا بد ان توضح الفكرة العربية وتشق طريقها ، خلال الدول والشعوب والطبقات ، الى اعماق النفوس وتتخذ مكانها في كيان الافراد وتؤثر في حياة كل عربي . لذلك وجب ان ينتج في السنين القريبة أدب كثير متنوع وعلى مستويات مختلفة بحيث تفهم العروبة وتقدرها وتتعلق بها جميع المصالح والعواطف والنزعات — ليجد فيها المفكر العربي وسيلة لنموه في الحكمة والمعرفة ، وليجد فيها الشاعر موضوعاً رفيعاً لخياله وادبه ، والسياسي ميداناً كبيراً لمواهبه وطموحه ، والتاجر ساحة لنشاطه ومنابع ثروته — وليتحقق الجميع انه مهما كانت الفوائد التي تنتج عن دولة العرب فهي قبل كل شيء شركة روحية واخوة عربية لا تمس نفساً إلا ارتفعت بها ودفعتها الى جهد اضافي نبيل . دولة العرب مطلب جليل وامر عظيم يدعونا اليه الف داع وداع — ضرورة الحرب ، ومصالح السلم ، دعاء التجارة ، صوت الادب ، نداء التاريخ وسير القدر .

الواقع ان فئة من الادباء والشعراء لمحت مزايا الوحدة العربية قبل اواخر القرن الماضي وتمتعت بشهرة تجاوزت حدود الحواجز القائمة يومذاك . ثم تبعها بعد الحرب العالمية الاولى جماعة من الساسة والتجار وفي كل يوم يشير منطق الاشياء وواقع الحياة الى مزايا الوحدة ويزداد رهط المؤمنين . لكن الدولة لا تقوم على نخبة مثقفة ضئيلة او على طبقة متنورة مغامرة ،

وهناك عقبات في سبيل الوحدة لا يتغلب عليها الا اذا مهدت لها قلوب الناس وعقول الناس . فلتتوضح الفكرة العربية بقوة وجمال ولتنتشر ولتغلب وتنتصر وتشمل جميع الساكنين في المدن والقرى وفي الصحراء وعلى اطراف الرمال .

ففي كل دولة عربية قائمة الآن جماعة من الناس ، لها قوتها وشأنها ، اكتسبت حقوقاً في الاوضاع الحالية وانشأت مصالح حيوية متصلة بتلك الاوضاع . ولا ينتظر ان تتخلى عن تلك الاوضاع والحقوق والمصالح التابعة لها ما لم يبلغ ايمانها العربي درجة لا تقلّ عن ايمان الجاهليين الذين اسلموا من قبل ، او ما لم تدفع الى التضحية بضغط هائل من اكثرية الشعب الذي يجد مصلحته الحقيقية في تواري تلك الاوضاع وفي بناء صرح قومي موحد .

الأمل الاخير في تحقيق الوحدة العربية ليس بالبيوت الكبيرة والطبقات الحاكمة والفئات المهيمنة حالياً على مصائر العرب ، وانما يتوقف في التحليل النهائي على قاعدة الهرم العظيم — على الشعب العربي نفسه . فالنظم والدول والدساتير لا تنشأ في فراغ ولا تشاد على السحاب ، وانما تبنى على اساسين من ارض وشعب . قد تقوم على جهل الشعب او خوفه او نخوته او رضاه ، لكنها تقوم على مجموع الشعب في اي حال . واذا كنا نستهدف بناء صرح قومي متين مستند الى حب الشعب ورضاه فلننزل الى الصعيد الشعبي ولنعمل هناك من الاساس .

وقبل ان اترك موضوع العصبية لا بد ان اشير الى صعوبة اخرى تعترض سبيل الولاء وهي ان للعصبيات الصغرى في بلاد العرب مشخصات ومؤسسات انسانية منظورة يسمعها كل فرد ويراها ويشعر بوجودها في كل ما يتصل بالدولة من تفاصيل الحياة ، فيصبح انقياده لها عادة وخلقاً من الاخلاق . بينما ان القومية العربية ، بعد ان انهارت دولة العرب الاولى ، لم تعبر عن نفسها في دولة منظورة ، ولم ينسج لها علم ولم يوقع نشيد .

وليس من السهل على العامة من الناس ان يتخيلوا شخصية عربية معنوية تسمو على سائر الشخصيات الوطنية فيمحضوها خالص الود وصفو الولاء . والرأي ان تغدو مؤسسة الجامعة رمز الدولة العربية العتيدة وبالتالي موضع الولاء العربي . واني عائد الى موضوع الجامعة في آخر هذا الحديث .

لنفرض الآن انا انتهينا من المرحلة الاولى . ولنفرض انا أقمنا مجتمعاً عربياً فاضلاً وحمينا مجتمعنا بقوة نظمنا السياسية والاقتصادية وبالحصانة الادبية التي تضفيها الحضارة الكريمة على اهل الحضارة . لنفرض ان العرب مئة مليون من البشر قبل انتهاء هذا القرن وانهم شادوا ملكاً في المركز الجغرافي الممتاز حيث تلتقي ثلاث قارات وحضارتان عالميتان . عندئذ يستطيع العرب ان يأخذوا مكانهم بالمساواة الحقيقية بين الدول وان تكون لهم سياسة خارجية تفرض احترامها على الناس .

سياسة العرب الخارجية

يعلم العرب جيداً ان لا حرية ولا كرامة الا للاقوياء . فقد تعقد المعاهدات بين الدول وتنشأ العلاقات الودية ويقال كلام كثير عن المصالح المشتركة والصداقات التقليدية ، لكن سيادة الدولة وعزة الامة وجلال الملك ـ هذه لا تُباع ولا تشرى ، ولا تؤخذ ولا تعطى ، ولا تمنح ولا تهدى ، وانما تُستحق استحقاقاً وتنتزع عنوة واقتداراً . والحديث القديم المعاد عن المساواة بين الشعوب والعدل والانصاف لا يغني من الحق شيئاً ، اذ لا صداقة ولا مودة ولا اخاء ، الا بين الانداد وبين الاكفاء . هذه الحال بين الافراد وهي كذلك بين الجماعات .

ويعلم العرب ايضاً انه رغم العهود والمواثيق والمؤسسات الدولية ومجالس الأمن ما زالت العلاقات بين الامم قائمة على سياسة القوة ، بل ان سياسة القوة لم تكن في زمن ما اوضح منها في عالم ما بعد الحرب .

ونحن اذ نحترم حسن نيات الدول جميعاً واذ نسجل بشكر وتقدير تصريحات كبار الساسة المتكررة عن رغبات انسانية مخلصة لا يسعنا ان

نتجاهل الحقيقة الكبرى وهي ان قلب الانسان لم يتغير ، وان الطبيعة البشرية الفاعلة في مؤتمرات الدول والاستشارات العليا هي نفس الطبيعة البشرية التي تطالعنا في كتب التاريخ الطويل وتصادفنا في اختباراتنا اليومية في الشارع والسوق ودار الندوة وفي مشاهد الحياة الخاصة .

على ضوء هذه النظرة الواقعية الى الاشياء وفي نطاق الاهداف التي تقدم ذكرها يضع العرب سياستهم الخارجية . ونحن لا نملك هنا سوى الاشارة السريعة الى بعض الخطوط الكبرى في تلك السياسية .

١ ـ دولة العرب : واجب العرب الاول ان يعملوا على صيانة السلام في وطنهم الكبير وعلى رفع مستوى حياة ذلك القسم من الانسانية الموكول امرها اليهم وأن يهيئوا الظروف المادية والادبية لسعادة الفرد وخير المجموع ، ويقدموا للعالم اداة صالحة للتعاون الدولي وعماداً للنظام العام .

٢ ـ الشرق الاسلامي : للعرب صلات ثقافية تاريخية خاصة بالشعوب الاسلامية في الهند والشرق الاقصى وآسيا الصغرى واوروبا الوسطى ، تحملهم واجبات وتبعات وتمنحهم بعض الاولوية والمزايا . فمن واجباتهم تأويل الاسلام تأويلاً جديداً مناسباً لحاجات الزمان ، وليس اولى من العرب بفهم نتاجهم وادراك اسرار لغتهم . ثم ان هذا العمل ضروري للعرب أنفسهم وشرط من شروط نهضتهم . وقد لا ينقضي جيل إلا وقد غدت جامعة الازهر مركزاً رئيسياً للدراسات الاسلامية ومبعث انوار ودار اجتهاد . ومن المزايا ان الجماعات الاسلامية اينما وجدت تكون صلة وصل طبيعية بين العرب وبين الدول التي تعيش في ظلها فتزداد اسباب الود بين الشعوب وتؤدي الى التعارف والتآلف في مصلحة الاسلام . ثم ان التراث الاسلامي المشترك يسمح بانشاء جبهة من الشعوب الاسلامية متعاونة متكاتفة ضامنة لاستقلال افرادها جميعاً ، حاشدة قواها في معسكر الامم الراغبة في السلام والاخوة الانسانية .

٣ ـ النظام الدولي : تتقدم الدولة العربية ووراءها الشرق الاسلامي

الى الصف الاول بين الدول لتساهم في تدبير شؤون العالم وفي قضية السلام . فنحن مقتنعون بان امة واحدة مهما كان شأنها لا تستطيع ان تعطي العالم سلاماً دائماً ، وان أستطاعت ان تعطي شبه سلام فلفترة ما ولا يكون سلامها هذا سليماً من اهوائها مقبولاً عند احرار الناس . لقد فرضت روما قديماً سلاماً رومانياً على جزء كبير من العالم ، فاين سلام روما ! وهل ارضى عدل الرومان سائر الاقوام ؟

ان سلاماً اميركياً او سلاماً بريطانياً او سلاماً روسياً ليس السلام . لقد قلت بأنا ، رغم خلافات كثيرة وقضايا معلقة ، نود الشعب الاميركي ومثاليته وبراءته ونحترم الامة البريطانية وشهامتها ودهاءها ، ونقدر وطنية روسيا ورغبتها الصادقة في اسعاد العامة من الناس وتحريرهم من الفقر والهوان . لكنا نعلم « ان الانسان ليطغى » ونشكر الله على ان في العالم اكثر من دولة واحدة كبرى . ولكن ماذا يضمن لنا الا تتفق الدول الثلاث على حساب غيرها وتتوصل الى تسويات تكون ضحيتها هذه الدولة الصغرى او تلك الدولة الوسطى ؟

لست أدري متى وكيف تصبح دولة العرب من الدول الكبرى التي تملك القوة المادية لدعم نظام عالمي . ولست ادري ان كان العصر الذري سيبقي على فكرة الدولة الكبرى بمعناها الحالي . لكني اعلم بان العرب سيجدون انفسهم ، في الخمسين سنة القادمة على الاقل ، بين الدول الصغرى ما داموا متفرقين موزعين على دول ، وبين الدول الوسطى ان هم اتحدوا . فليس لنا وليس للدول الصغرى سوى طريق واحدة لحفظ حرياتنا وتوزيع العدل وهي الطريق التي يتبعها المواطنون الاحرار في الدولة الحديثة تجاه سلطة الحكومة ومادتها القاهرة .

ما هو المبدأ الاساسي الذي تكون به الجمهورية وبدونه لا تكون ؟ وكيف تصان حريات الافراد في الجمهوريات ؟ هناك دستور يحدد سلطات الحكومات وقانون يقضي بالرجوع الى الامة بين حين وآخر لتختار حكامها

لكنا إذا وقفنا هنا لا نكون قد قلنا شيئا كثيراً إذ ما يمنع الحكومة ان تعطل الدستور او تلغي الدستور وتفرض سلطة مطلقة على الناس ! الضمانة الاخيرة ، الضمانة الكبرى في مروءة المواطن العادي ، في حبه للحرية واستعداده للدفاع عنها . لذلك اوصى بريكليس (Pericles) قديماً بان ثمن الحرية يقظة دائمة ، وما فكر بعده مفكر في حرية الفرد ونظام الحكم الا اقتبسه او ايده او اضاف عليه . وهذا جفرسن (Jefferson) صاحب الفلسفة التي قامت عليها جمهورية الولايات المتحدة ينصح بان يجيد كل مواطن استعمال السلاح وان لا يكون للدولة جيش نظامي بل يؤلف حرس اهلي من المواطنين ليستطيع المواطنون ان يثوروا على الحكومة إذا تجاوزت حدود الدستور او قاربت الطغيان .

صحيح ان الدولة الكبرى لا تصبح كبرى برأينا واختيارنا وانما تكتسب صفة الكبر او الكبرياء بثروتها الطبيعية وقوتها الصناعية وتقدمها العلمي وغير ذلك من العوامل التي لا تقع تحت حكم الدول الصغرى . لكن اكبر الدول وافواها تتبع الرأي العام وتخشى حكم الضمير الانساني فهي تحاول دائماً ان توحي بانها تعمل ضمن الشرع الدولي القائم او العرف بين الامم . لذلك كان من الخير ان يوجد ميثاق وهيئة امم متحدة ومجلس امن . لكني اعود فأقول حذار حذار من الاتكال الاعمى على الامم المتحدة ، وهي في التحليل النهائي حكومة ثلاث دول كبرى او توازن بينها . لنحتط كما يحتاط المواطنون الاحرار ولتكن كل دولة صغرى مستعدة للدفاع عن حقوقها متجهة الى التعاون مع شقيقاتها لتحد من طغيان الكبار . فاذا اختلفت الدول الكبرى ضمن مؤسسة الامم المتحدة فهناك مجال للعقول الكبيرة المتوفرة لدى الدول الوسطى والصغرى وميدان للرأي والحجة وحسن الاسلوب ، وفرصة متاحة لحفظ التوازن بين الجميع . واذا وقعت الحرب بينها فلن يعدم الغرب ساسة يتخذون موقفاً حكيماً على ضوء مصلحتهم العليا . والاولى ان نكون على الحياد

ما لم يكن في الحرب تحرير لجزء من وطننا لم يحرر او رفع ظلامة عنا او تحقيق مطلب قومي مشروع .

اقول ، وأنا المحب لليسر والرفق في الامر كله ، انه لن ينفع العرب شيء كحرب مشتركة او جهاد نبيل تلتقي فيه السيوف وتمتزج الدماء كما التقت او امتزجت في القادسية واليرموك . والدماء تراق كريمة في الذود عن اعراضنا ومحرماتنا ، في الدفاع عن اصدقائنا وجيراننا ، في خدمة إلاهنا وصيانة امتنا برعاية الله .

جامعة الدول العربية

يؤخذ مما تقدم ان لا سياسة خارجية للعرب ، نافذة او مجدية ، ولا كرامة ولا سلامة لهم ما لم تلتحم جميع عصبياتهم وتؤلف عصبية غلابة اقوى تجد تعبيراً سياسياً لها في دولة واحدة كبرى . فالقضية القومية التي تحتضن كل القضايا وتعلو عليها جميعاً في عشرات السنين القادمة هي قضية توحيد العرب .

لقد ابتدأت عملية توحيد المانيا على عهد بسمارك بامتداد نظام بروسيا حتى شمل نظامها النمسا في عهد هتلر .

وتمت الوحدة الايطالية بدهاء كافور وسيف كاريبالدي ورعاية بيت سافوا.

وانشئت الولايات المتحدة من قبل على اثر نضال مشترك في التحرر من بريطانيا وقامت على القبول والرضا في مؤتمرات الآباء الاميركيين .

فكيف تتم الوحدة العربية ؟ هذا امر في ضمير الغيب وطي الزمان . فقد تحدث طفرة وتقوم فجأة ، وللطفرة سابقة فذة في تاريخ العرب . وقد يجتمع ممثلو الاقطار في ظرف خطير او في ظل ازمة (موت او حياة) ويصنعون صنيع الكونغرس الاميركي . وقد يمتد بيت من البيوتات المالكة امتداداً بطيئاً او سريعاً ويجر عباءة الخلافة على العرش ويهيمن على دولة بعد اخرى ويعطي للعرب وحدة هاشمية او سعودية او علوية . وقد تتطور مؤسسة جامعة الدول العربية نفسها الى توحيد (Confederation)

فاتحـــاد (Federation) فوحدة (Union) . ولكن كيفما كانت طريقة الاتحاد ومهما كان اثرها في حياة الدولة الناشئة عنها فهي ثانوية وتابعة ، بمعنى ان نجاحها يتوقف على استعداد اكثرية العرب ، الذين يشملهم التطور او الانقلاب ، لفكرة الوحدة ومدى حماستهم لرؤيتها محققة . فمهما كان كيد بسمارك وشدة بأس جند بروسيا فالوحدة الالمانية مهّد لها ادب كبير وفكر ونظام اقتصادي مشترك سبق التوحيد باعوام . ومهما كان دهاء كافور وحدّة سيف كاريبالدي فالعمل المهم قام به مازّيني في ضمير الشعب الايطالي . ومهما كانت حكمة واشنطون وهاملتون وآدامس (Adams) وجفرسون وسائر الآباء فلا شك ان توماس بين (Thomas Paine) كان قد اعدّ لهم الرأي العام لفكرة الاستقلال وفكرة الاتحـــاد .

فواجبنا اليسير يا شباب ، الواجب الذي يستطيعه كل فرد اعتنـــق الفكرة العربية ، مهما كان شأنه في الحياة او نوع عمله او محـل اقامته ، هو ان يمهد قلوب الناس وعقول الناس لدولة العرب . ولما كان ينبغي ان تكون لعملية إعداد الطريق وحدة وخطة فأنا نتطلع الى جامعة الدول العربية لتتزعم عملية التمهيد وتعطيها معنى خاصاً واتجاهاً . ونحن نحمـــل الجامعة زعامة العمل التمهيدي لانا نرجو ان تتم الوحدة العربية بالتدريج والرضا وان تنمو الجامعة ، وهي اداة الرضا وآلة التنسيق ، وتصاحب بتدرجها الضمير العربي وتصبح الدولة العربية المنشودة آخر الامر . لذلك كرست آخر محاضرتي لموضوع الجامعة وختمته باقتراحات عملية آملاً ان يتبناها المؤتمر او تصل الى مسامع المسؤولين في دوائر الجامعة ، فقـــد ينفع العرب ان يعلم الجيل المتقدم ماذا يفكر الجيل الذي يليه وماذا ينتظر لان الامة شركة روحية بين الاجيال ، ليس بين الاحياء فحسب ، وانما هي شركة خالدة بين الاموات وبين الاحياء وبين اقوام لم يولدوا بعد .

جامعة الدول العربية ، رعاها الله ، من حيث انها مؤسسة هي اقرب شيء الى مؤتمر سفراء او ناد مترف لساسة العرب او اداة تنسيق لسياسات

شتى صادرة عن ارادات متعددة ، هي بوضعها الحالي وفي اذهان كثير من الناس سياسة واصطلاح لا مبدأ قومي وقاعدة حياة . وهي الى ذلك كله مؤسسة حكومية بمعنى انها تمثل الحكومات العربية ولا تمثل الشعوب العربية مباشرة ، فوجودها معلق على ارادة ملك أو رأي حكومة او نزعة مجلس . لكن الحقائق السياسية والتيارات الاجتماعية التي تدعمها بصورة خفية هي اقوى ما تكون . لذلك نرى من الخير ان تحقق الجامعة اتصالاً مباشراً مع الرأي العام العربي بطرق مقبولة لدى الحكومات وبدراية لا تثير الشكوك والمخاوف ، وان تتحول من مؤسسة آلية الى جسم عضوي يشخص الوجدان العربي ويتجاوب معه تجاوباً عميقاً مضطرداً . وقد تحقق الجامعة ذلك التحول من اداة الى كائن عضوي بتوسيع اعمالها وامتداد اثرها الى كل منطقة بكر وبتقديم خدمات مادية وادبية تقصر فيها الحكومات او تهملها لضيق نظرتها او لمجرد انها تعمل في حدود تكوينها ودستور حياتها . ويمكن ان يزداد نشاط الجامعة في الحقلين الداخلي والخارجي وان تقوم بخير كثير وتفتح دائرة بعد اخرى من الحياة العربية فيتسع سلطانها الادبي بحيث لا تمر اعوام الا وتغدو الجامعة محور الحياة العربية جمعاء . ولست احاول استقصاء الاعمال التي يمكن ان تنهض الجامعة بها اذا ارادت ان تعد الطريق لدولة العرب ، فالوطن العربي ميدان واسع رحب والجماعات ظمأى الى ماء ، ومادة ، ونور . وانما اسوق بعض الاقتراحات على سبيل المثال .

اقتراحات عملية للجامعة

١ ـ ايجاد « وطنية جامعية » تنشأ حول شخصية منظورة خليقة بان توحي وتثير وتلهب الخيال وتفجر الدماء من الحجر ـ ليكن للجامعة علم من الالوان العربية مغشى بالذهب والحرير . ليكن لها شعار جميل تزدان به صدور الفتيان . لينظم لها نشيد وليوقع على نغم فخم عظيم . ولتنقش باسم الجامعة اوسمة وتنسج اوشحة تكافأ بها الخدمات الممتازة للعرب وتكون

مطمح الرجـــال وموضع الفخار . مـــن مجموع تلك التفاصيل والمشاعر والاحساسات تبرز في خيال العامة شخصية جامعة محببة يتجه اليها الولاء .

٢ ـ انشاء هيئة كبيرة او مكتب للجامعة ضخم يعمل فيه عدد كبير من الشباب العربي . فمكتب الجامعة الدائم الآن امانة وامـــين وبعض الكتاب والمعاونين . اما المجلس فيعقد ويفض وينصرف اعضاؤه ليغرقوا في واجبات اخرى تدعوهم اليها مناصبهم في العواصم . وكذلك اللجان واعضاء اللجان . وليس كل القصد ما يعمل العدد الضخم وانما الاهم ان يذوقوا لذة العمل لمجتمع كبير وشرف الخدمة لقضية كبرى . والاولى ان يعمل احدهم سنوات معدودات ثم يرجع الى ميدانه الاول ويفسح المجال لآخر . فينشأ من تعاقب الافراد على خدمة الجامعة جيل من العرب تعوّد ان يفكر عربياً ويعمل في نطاق عربي ـ مثل هذا الجيل يشيد دولة العرب .

٣ ـ الاسراع بوضع نظام لجنسية عربية مشتركة بين الاقطار العربية جمعاء بحيث تضمن حرية تنقل العربي بين قطر وقطر وتكسبه حقوق المواطن في اي بلد يختار لاقامته ونشاطه . ونعلم ان هذه الفكرة موجودة عند المسؤولين وقد تعرّض لها امين الجامعة في حديث للصحافة عام . فنحن نؤيدها بقوة ونطلب سرعة الانجاز .

٤ ـ تخصيص دائرة من دوائر الجامعة لقضايا البدو الرحل ، فمشكلة اهل الظواعن والخيام تتناول قسماً مهماً من رعايا الدول العربية ، كثيراً ما يكون مشتركاً بين دولتين او ثلاث . مثال ذلك ان القبيلة في صحراء سوريا تلتمس الكلأ في واحات العراق متى شاءت وتتفادى القوانين والنظم في اضطرابها بين الدولتين . لكني ألفت النظر الى العشائر لامر اجـــلّ فالقبائل العربية ثروة كبرى وذخر من دماء صافية وحيوية وشباب . ومن الخير ان تُضبط رحلة العربي التقليدية من قلب الصحراء الى الهـلال الخصيب فما يلي الهلال ، وان ينظم توزيع القبائل على البلاد لتغـــذية الحواضر العربية والمدن والقرى بالدم النقي الاحمر .

٥ – تاسيس صحافة جامعية تحقق الاتصال المباشر بين الجامعة وبين الشعب العربي ، وتعبر عن رأي الطلائع والرواد وتذكر الحكومات دائما بالمصالح القومية العليا وتشير الى اتجاهات المستقبل . ويستحسن ان يكون هناك عدة جرائد ومجلات وان تصدر برعاية الجامعة الكتب والنشرات على مستويات مختلفة بحيث تجتذب جميع الاذواق والافهام .

٦ – انشاء « سفارات » جامعية في العواصم الكبرى تعزز مكانة الجامعة في الخارج وتكسبها شخصية دولية مستقلة عن شخصيات الدول العربية . وعندما تبتدىء بعض الدول العربية تشعر بضغط التمثيل المستقل على خزينتها تلحق بسفارة الجامعة وزيراً لها او قائماً باعمالها ، وقد يتكرر هذا التدبير ويقلد بعد تردد وعناد ثم يصبح قاعدة متبعة فيها تقريب ليوم الوحدة وتخفيف عن المكلف العربي الصغير .

تصوروا ان ممثل مصر اصبح سفير العرب في هذه العاصمة وان ممثلي سوريا والعراق ولبنان والحجاز بعثوا وزراء لدولهم في سفارة العرب ، وكذلك القائمون بالاعمال والملحقون والكتبة والتابعون ، الا تغدو السفارة العربية من اعز السفارات في العاصمة البريطانية ومن اغناها بالكفاءات والرجال ؟ افليس في هذا حكمة واقتصاد وتدبير ؟

٧ – وضع ميثاق بين العرب او عهد تقره الحكومات العربية ويتطلع اليه المحكوم والمظلوم والمحروم من الشعب . وينص الميثاق على الحقوق الاساسية التي يجب ان يتمتع بها كل انسان عربي ، فتضمن له مادة لحياة كريمة ، وعلماً يتلاءم مع استعداده الطبيعي ، وحرية في انماء شخصيته وابداء الرأي وتصريف العمل . ذلك بغية العدل والانصاف وخشية ان يغدو القسم الناقم من المواطنين العرب فريسة لتيارات تكتسح العالم وتشوه ثقافة الامة وتهدم اركان الاجتماع .

الامة العربية جمعاء تهان وتشقى ما دام على صعيد مصر انسان واحد يطأ الارض بقدمين حافيتين . والامة العربية جمعاء تتألم وتأسى ما دام في

ملك الامام مجتمع متحجر مغلق يقتل الشخصيات ويحرم العرب بما تضم صنعاء وعبقرية اليمن . (ضربت مثل الفلاح المصري ليس لانه اشقى من سائر الفلاحين في بلاد العرب بل لان مصر تضخم الاشياء فغناها الغنى ، ومجدها المجد ، وشقاؤها الشقاء . وذكرت اليمن لصلة عاطفية شخصية ، ففي خضراء اليمن ، قبل الهجرة باجيال ، نزلت قبيلة الازد على ماء غسان .)

نحن لا نرضى ان يكون في دولتنا امتان : امة الفقر وامة الغنى ، امة الجهل وامة العلم ، امة السادة وامة العبيد ، فالمجتمع القوي المتين هو المجتمع الذي يكون كل فرد فيه مواطناً كريماً ، متنوراً ، منتجاً ، حراً والدولة الفاضلة هي التي تستطيع ان تقول بحق :

ان شعبي سعيد ، لا الجهل يسوده ولا الشقاء
وسجوني خالية من السجناء
وشوارعي لا متسولين ولا اشقياء
الطفل والشيخ والعاجز والارملة واليتيم جميعهم في رعاية الدولة
والضرائب موزعة بعدل ، تجبى برفق ، غير مرهقة
والمواطنون متساوون احرار والحكومة شورى بين الناس*

٨ – إحداث كلية قومية في القاهرة او في غير مكان تدوم فيها الدراسة سنة او بعض سنة وتنتهي بجولة في الاقطار العربية . يسعى اليها الشباب ويسعى اليها الكهول فيهيئون انفسهم بعد دراستهم المنتظمة السابقة او بعد اضطرابهم في الحياة ، للعمل القومي المبني على وعي النظرية القومية وعلى تقدير خطوات العرب في حركة العصر العامة في مجال التاريخ . ويدعى الى محاضرتهم قادة الرأي في البلاد وكبار رجال السياسة العربية ليتم الاتصال بين الاجيال العربية فتنحدر الامانة من جيل الى جيل على نهج مضطرد مستقيم .

٩ – تبني الجامعة لمواهب العرب وفتح المسابقات وارسالها البعثات الى حواضر العلم والفلسفة والفنون . كم من مواهب وكم من عبقريات تولد على الصعيد الشعبي وتدفن في الصعيد ، لا حققت ذاتها ولا انتفع بها

* مقتبسة بتصرف كبير عن Thomas Paine

الناس . والامة التي تهمل مواهب ابنائها لا تستحق مواهب الابناء ، فضلاً عن ان العبقريات التي تتفتح وتزهو على يدي الجامعة تصبح ملكاً للقضية العربية وثروة واملاً . ونحن في حرصنا الشديد على مصالح الافراد العاديين وفي توفرنا على اسعادهم لا نضيع حقوق الامتياز ولا نجهل ان الاعمال الكبيرة من همة الكبار الممتازين .

١٠ – اقامة مهرجان ادبي في كل عام ، على ايام ، يتبارى فيه الشعراء والخطباء ويتعصب كل قطر لشاعر او خطيب ، ويحمل على الاعناق ويجاء به الى الميدان في نفر عزيز من قومه على خفق الرايات وقرع الطبول ، وتتنافس الاقطار كما كانت تتنافس القبائل في سوق عكاظ تنافساً جميلا يضيف الى مجد اللغة ومسرات الحياة . ثم توزع الجوائز على اهل السبق والمجلين ، وتحفظ القصائد والخطب ، وتكتب بماء الذهب ويجيا تقليد عربي قديم .

الشاعر يستبق الشارع ، والخطيب يمهد الطريق لرجل الدولة ، ولا شيء يفتن العرب كلسان بليغ . لذلك كانت بينة الرسول اعجاز قرآن .

اخيراً : ابتداء حركة فتوة عربية او كشافة او رواد تكون لها فرق وكتائب واعلام في كل جزء من الوطن العربي وتؤلف نواة لجند عربي موحد القيادة ، مفرد الولاء .

فاذا قيل ان هذه المشاريع تحتاج الى مال كثير ، فبعضها لا يحتاج الى شيء وبعضها يحتاج الى قليل اول الامر ، وقد يدّر على الجامعة كثيراً في المدى البعيد . واما الموازنة الضخمة التي تتطلبها سائر الاغراض فلا يبعد ان تمدها الحكومات بدافع من الرأي العام وان تنجدها الفضائل العربية الأصيلة عند الافراد من كرم وبذل . اذ على الجامعة ان توقظ هذه الفضائل وتحييها فتوقف للجامعة اموال الاغنياء والعقارات ويتقدم سراة العرب بالتبرعات . ومن الحكمة ان تُعرف المشاريع باسماء المحسنين فيقال بعثة فلان وجائزة فلان ، وان تمنح الاوسمة وتنحت التماثيل وتشاد الصروح على اسم

اصحاب النجدة والسخاء .

*

هأنذا قد اقبلت على آخر الحديث بعد ان طويت بين يديكم الزمان وتكلمت كمن له سلطان لانني عربي ، ولي ايمان بقومي لا حد له . فان بدا في لهجتي ثقة لا مبرر لها او ضلال بعيد فعفوكم جميل يطمعني فيه حسن إصغائكم الى حديثي الطويل .

وبعد فان فاتني ان ابتدىء المحاضرة البتراء باسم الله ، اخذاً بمذاهب العرب واتباعاً لتقليد كريم فلن يفوتني الانتهاء الى دعاء ، ذاكراً ان العرب ما نهضوا بامر ولا فتحوا الامصار وصرفوا الاقدار الا لتعلو على مآذن الشرق تلك الاغنية الخالدة « الله اكبر » .

ايتها السماء اشملي بعنايتك نبتة رقيقة غرسناها في وادي النيل لترسل جذورها الى اعماق الارض وترتفع اغصانها فوق السحاب وتُظلّ اوراقها البلاد وتسعد العباد .

ايتها السماء تعهدي جامعة الدول العربية وقرّبي الميعاد .

ويا رب صن امة العرب .

كلمة في الترجمة

•

جميع القطع غير العربية الاصل في هذا الكتاب نقلها المؤلف من الانكليزية او الافرنسية، مراعياً في نقلها الى العربية المعاني اولاً، محاولاً بعد ذلك ما امكن تذكير القارىء بطابع الاسلوب الاصيل .

وهذه الصفحات المقتطفة من شتى العصور والبلدان والثقافات ، والمتباعدة شكلاً واسلوباً وبياناً ، يكمل بعضها بعضاً وتلتقي ظلالها المختلفة فتؤلف صورة جامعة لمعنى الوطنية .

يظهر قريباً للمؤلف

أهل الحل والعقد

رسالة في نظرية الحكم

فهرست

مقدمة في التربية الوطنية		٧
١ – حضارة اثينا	بركليس	١٥
٢ – جنود سبارطة	هيرودتس	٢٢
٣ – مواطن الدولة المثالية	(جمهورية افلاطون)	٢٧
٤ – واجب الرجل العام	» »	٢٨
٥ – وطنية سقراط	(حوار اقريطون)	٢٩
٦ – رجل الدولة امام المسؤوليات	ديموستين	٣٢
٧ – ابناء روما	بلوتارك	٤٣
٨ – المجد الحقيقي	شيشرون	٤٩
٩ – تقدير الوطن	»	٥١
١٠ – دعاء الملك	ابن الطقطقى	٥٤
١١ – الولاية تقرباً الى الله	ابن تيمية	٥٦
١٢ – في اعتزال السياسة	بولنغبروك	٥٧
١٣ – الوطنية والاحزاب	ادموند بورك	٥٩
١٤ – الوطني في البرلمان	جونسون	٦٣
١٥ – البيان الاميركي	توماس جفرسن	٦٥
١٦ – العقد الاجتماعي	ادموند بورك	٦٧
١٧ – الانصراف من الخدمة العامة	جورج واشنطن	٦٨
١٨ – ركوب الخطر	ادموند بورك	٧٧

١٩ – الانتساب الى شعب عظيم	جوته	٨٠
٢٠ – الانسانية والوطن	جوزيف مازيني	٨١
٢١ – رؤيا الوحدة الايطالية	مازيني	٨٦
٢٢ - في الحرب الاهلية	ابرهيم لنكولن	٨٩
٢٣ – الى المعلمين والمعلمات	جان جوريس	٩١
٢٤ – الوطنية لا تيأس	مصطفى كامل	٩٣
٢٥ – للعمال وطن	جان جوريس	٩٩
٢٦ – وطنية كليمانصو	ونستون تشرشل	١٠٢
٢٧ – دولة العرب	اديب اسحق	١٠٩
٢٨ – امير عربي	فيصل بن الحسين	١١٢
٢٩ – عبقرية دمشق	سعد الله الجابري	١١٨
ملحق :		
الوطنية العربية	اديب نصور	١٢٣

١٥٣ / ٣ / ٥٢

معمل تجليد
دار الحياة
صالح الدفو

320.158:N26wA:c.1
نصور، اديب
وطنيون واوطان
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01013730

American University of Beirut

320.158
N26wA

General Library